الباب الثانى

الصناعة والتقدم الفنى والعمل

obeikandl.com

الفصل السابع

عوامل تقدم الصناعة فى العصر الفاطمى

أورد لنا المؤرخون الروايات الطويلة عن خزائن القصور الفاطمية من الملابس والفرش والأمتعة والسروج والأوانى الذهبية والفضية والخزفية وأنواع السلاح وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر ، وحدثونا عن الجيوش والأساطيل الفاطمية والمراكز الصناعية المنتشرة فى البلاد ومدى انتاجها الكبير . وكشفوا فى خرائب الفسطاط وكيمان القاهرة الكثير من مظاهر الصناعة والفن فى عصر الفاطميين . كل هذا يجعلنا نعتبر هذا العصر عصر ازدهار الصناعة المصرية . ولم يقتصر الأمر على كثرة الانتاج بل تنوعت أصنافه واستحدثت أساليب جديدة كما فى العمارة ووجه الصناع المصريون كبير عنايتهم إلى اتقان الصنعة وجمال الفن مما سنوضحه بالتفصيل الكافى عند كلامنا عن الصناعات المختلفة . ولم تأت هذه النهضة الصناعية عفوا بل تحالفت عوامل متباينة جعلتها من خصائص العصر الفاطمي وأعظم مميزاته وأكبر مفاخره . والحق لم يكن الغزو الفاطمى معناه قيام حكومة مكان أخري بل كان ثورة سياسية ودينية واجتماعية بعيدة المدي .

كانت الدولة الفاطمية أول دولة مستقلة بمعنى الكلمة فى مصر لها نظمها وتقاليدها وأهدافها . حقيقة كان هناك تطور تدريجي يصح اعتبار أحمد بن طولون سببا فى السير به حثيثا ولكن مركز البلاد السياسى لم يكن مستقرا تماما كما يتضح لنا من عودة مصر إلى سلطان خلافة بغداد بعد سقوط الطولونيين واستمر ذلك زمنا إلى أن ولى أمرها الاخشيد وخلفاؤه . أما فى العصر الفاطمى فعاشت البلاد متمتعة بالاستقلال السياسى التام مدى قرنين من الزمان بغض النظر عن جنسية الأسرة الحاكمة أو أصلها . ولاريب أن هذا الحادث عجل بعملية التطور والنهوض وساربها خطوات سريعة إلى الأمام.

وقد كان هدف الفاطميين كذلك أن يؤسسوا امبراطورية واسعة مقرها القاهرة وينشروا مذهبهم الدينى فى العالم الاسلامى . وفضلا عن هذا كانوا يسعون بكافة السبل والوسائل إلى منافسة الخلافة العباسية وبزها فى ميادين العظمة والقوة والبذخ

والترف . لهذه الأسباب مجتمعة كان من الطبيعى أن يسعوا إلى استغلال موارد الثروة حتى تكون لهم منها قوة وأداة فعالة تعاونهم على تحقيق غاياتهم وادراك مآربهم ومن هنا بدت العناية بالصناعة باعتبارها عنصرا من عناصر الثروة الأهلية .

ومن الظروف التى كان لها أكبر أثر فى تقدم الصناعة استتباب الأمن وهو من نتائج الاستقلال وقوة الحكومة المركزية الأمر الذى أشاد به المقدسى (١) حين تكلم على سيادة الأمن والنظام والعدالة وتحدث به الرحالة الفارسى ناصر خسرو (٢) . أضف إلى هذا أثر المعاملة السمحة التى تمتع بها الأقباط وهم عماد الصناعة . ولقد كان هؤلاء حتى ذلك الوقت يصادفون الخير والشر حسب أهواء الولاة من العرب والاتراك ومقدار ما كانوا عليه من قناعة ونزاهة أو جشع . ولكن بقدوم الخلفاء الفاطميين وجد الاقباط أنفسهم أمام حكام يطبقون مبدأ التسامح فامنوا على أنفسهم وأموالهم والتفتوا إلى أعمالهم . ونعتقد أن من أكبر أسباب هذه الروح الجديدة من جانب الفاطميين رغبتهم فى استغلال مهارة أفراد هذه الطائفة فى الانتاج الصناعى وإدارة الحكومة ومصالحها المختلفة كما يتضح من كثرة اسناد الوظائف الهامة إلى أهل الذمة من الاقباط واليهود .

وقد امتاز العصر الفاطمى بحياة اجتماعية قوامها الترف والبذخ لم تر لها البلاد مثيلا من قبل بسبب التقدم التجارى . وإن ما ذكره المؤرخون عن خمارويه لمثل واحد يتضاءل أمام ما كانت عليه مصر خلال القرنين اللذين خضعت فيهما للسيادة الفاطمية . وقد تجلى هذا الترف فى القصور الفاطمية وبنائها وتأثيثها فقد كانوا يرصعون آنية المطبخ بالدر والجوهر ورصعوا التماثيل لتزينة مجالسهم كما ذكر المؤرخون عن مجلس شراب الأفضل (٣) واتخذوا من التحف ما يثير الدهشة فى النفوس . وكانت لهم

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢١٢

(٢) كان انتشار الأمن عظيما لدرجة أن التجار والصاغة والصيارفة لا يغلقون متاجرهم ومحلاتهم (Sefer Nemeh, p. 159.)

(٣) كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات وكان منهن أربع بيض من الكافور وأربع سود من عنبر وكن مرتديات أفخر الثياب ومزينات بأثمن الحلى ويمسكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة (ابن ميسر : أخبار مصر ص ٤٥٨ ، الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٤٢)

دور اختزنوا فيها أنواع الملابس والأمتعة والمصنوعات الدقيقة ذات الطابع الفنى الممتاز، وكذلك ملأوا خزائنهم بالمجوهرات فقد اخرجوا من الجواهر على عهد المستنصر بالله صندوقا فيه سبعة أمداد زمردواستخرجوا خريطة فيها وبية جوهر وهذا خلاف الصناديق الكثيرة العدد المملوءة بالسكاكين ذات المقابض من الجواهر المتنوعة (١). واتخذ الفاطميون مظلات الديباج والخز المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر وكانوا اذا خرجوا للمبايعة أوفتح الخليج أو الاعياد الدينية والقومية ركب الخليفة واعتم بعمامة الجوهر وبين يديه الجنائب عليها السروج المرصعة بالجواهر (٢). ولم تقتصر روح الترف على الخلفاء بل تعدتهم إلى الاقارب والوزراء وكبار رجال الدولة فقد أهدت ست الملك إلى الحاكم بأمر الله هدايا ثمينة من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وعشرون بغلة بسروجها ولجمها ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها وتاج مرصع بنفس الجوهر وبديعه (٣). أما الاحتفالات فكانت تمتاز بالروعة والبذخ تفرق فيها الكساوى والمقادير الكبيرة من السكر وأنواع الحلوى وغير ذلك.

هذه الحياة الاجتماعية المترفة التى أدهشت ناصر خسرو كما أدهشت الصليبيين من بعده (٤) دعت إلى تقدم الصناعة من حيث الكم والكيف وألفت أعباء جديدة على الانتاج الصناعى المحلى. وإلا كيف يتسنى للانتاج الصناعى المحدود أن يسد حاجة البلاط الفاطمى وحياة الترف التى سادت المجتمع فى القاهرة والفسطاط، وكيف تستطيع صناعة قاصرة أن تمد جيش الفاطميين وأسطولهم بما يلزم من سلاح وعتاد حربى وملابس لكافة طوائف الجند ورجال الأسطول ؟

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٤

(٢) شرحه جـ ١ ص ٤٧٠ — ٤٧٩ (راجع وصف ماكان يعمل يوم فتح الخليج)

(٣) شرحه جـ ١ ص ٤٥٨

(٤) O 'Leary: A Short History of tho Fatimid Caliphate, P.199
وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور زيارة رسولى الملك املريك سنة ٥٦٢هـ
(١١٦٧ م) للبلاط الفاطمى. وقد ترجم الدكتور زكى محمد حسن هذه الوثيقة الهامة نقتطف منها ما يأتى : — «وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور =

ولم يقف نهوض الصناعة على هذه العوامل غير المباشرة بل اتخذ الخلفاء الفاطميون وسائل مختلفة فى هـذا الصدد فقد روى ابن أبى طى وجعل كل ماهو فى صنعة صانعا للخاص وأفرد لهم مكانا برسمهم (١) وشجع الخلفاء الفاطميون الصناع الأجانب واستخدموا عددا من المهرة منهم ورقوهم الى مراكز تتفق مع مهارتهم (٢) ، فقد ذكر ابن الطوير عند كلامه على المناخ السعيد العبارة التالية وهى ذات أهمية كبرى « وأما المناخات ففيها من الحواصل مالايحصره إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين وآلات الأساطيل من الأسـلحة المعمولة بيد الفرنج فى بيوت برسمهم وكانت عدتهم كثيرة ففيه من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والفعلة(٣)»

= بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان وفيه زخارف أنيقة نضيرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بمـا حولهم جد التأثر دون أن يتطـرق الى نفوسهم أى خوف ورهبة . . ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة . وكان كل ذلك رائعا وبهيا رائقا بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هما إلا أن يقف الاعجاب به . وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أوانى وقنوات مرصوفة بالرخام وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة . وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية جديدة أشد جمـالا وإبداعا ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئا بجانبها . ورأوا فى هذه الحديقة أنواعا من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها ... فان الغرب لم يرقط مثل هذه الحيوانات . وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى وساروا فى تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشيـاء جديدة تزيدهم دهشة واعجـابا ووصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة . (الكنوز الفاطميه ص ١٦٢ — ١٦٣)

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٤٣

(٢) شرحه ج ١ ص ٤٧٨ وقد تكلم المقريزى عن العشاريات الكبـار وهى الذهبى والفضى والأحمـر والأصفر واللازوردى والصقلى وكان أنشأه تجـار من رؤساء الصناعة صقلى الأصل

(٣) شرحه ج ١ ص ٤٤٤

ويظهر أن هؤلاء الصناع استقدمهم الفاطميون من بلادهم واجتذبوهم بالرواتب المغرية والمعاملة السمحة ، أو أنهم من الرقيق الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف . ويبدو من عبارة المقريزى أنهم كانوا يعدون بعض الأسرى لهذا الغرض (١)

مواد الصناعة

وكانت المواد الاولية اللازمة للصناعات المختلفة على ضربين أولهما من إنتاج البلاد وثانيهما مما استوردته من الأقطار الأجنبية .

أما المواد المحلية فأنواع مختلفة . الأول منها ما كانت تنبته الأرض من كتان وقصب وكرم وزيتون وزهور ونيلة . والثانى ما يؤخذ من الماشية والأغنام والماعز والأبل من جلود وصوف وشعر ووبر . أما النوع الاخير فما يستنبط من باطن الارض أو يستخرج من البحيرات فكانوا يحصلون على معدن الذهب من مناجم وادي العلاقى على مسيرة أيام من بلدة أسوان (٢) ويستخرجون الزمرد من مواطنه وهى على مسافة سبعة أيام من قفط (٣) واللؤلؤ من مغاوصه ببحر القلزم بجوار جبل الطور (٤). وفى البر الغربي من ناحية الطرانة ومن الفاقوسية وبحيرة النطرون كانوا يحملون في كل سنة عشرة آلاف قنطار من النطرون (٥) ، أما الشب ففى الصعيد وكان العربان يأتون به إلى شاطىء النيل عند أخميم وأسيوط والبهنسا ويباع قليل من محصوله الكبير إلى اللبوديين والصباغين (٦) وكانت تلال المقطم تمون صناعة البناء بما تحتاجه من الحجارة ، أما مواد الصباغة المحلية فكان أهمها ثمرة شجر السنط ثم نبات النيلة . واعتمدت صناعة السفن والزوارق والاثاث على المساحات

---

(١) وفيما يلى عبارة المؤلف « وجلس ـ أى الخليفة ـ بالمنظرة وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة ومن جانب البر فاستدعيت الجمال لركوبهم وشق بهم القاهرة ومصر فلما عادوا من مصر صاروا بهم الى المناخات فصح منهم ألف رجل فانضافوا إلى من فى المناخ وأما النساء والصبيان فانهم دخلوا بهم الى القصر بعد أن حمل منهم للوزير نصيب وافر وأخذ الجهات والأقارب بقيتهن فيستخدموهن ويعلموهن الصنائع ويتولى الأستاذون تربية الصبيان » (الخطط حـ ١ ص ٤٨٠)

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٩٧ (٣) شرحه جـ١ ص ٣٣٣

(٤) ابن الاكفانى : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ص ٣٢

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٣ ص ٣٨٧

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٩

الواسعة المغروسة بالاشجار فى مناطق الغابات وفى البساتين الكثيرة وغير ذلك (١) .

وفى الوقت نفسه كانت مصر تستورد من الأقطار الاخرى بعض مواد الصناعة إما لعدم توافرها أو لقلة إنتاج البلاد منها . ومثل هذا الحرير من شمالى أفريقية والشام والاخشاب المتينة للأسطول وعمل الاثاث الفاخر من أحراش الشام ، والاخشاب المتينة للأسطول وعمل الاثاث الفاخر من أحراش الشام وكرواتيا ودلماشيا ، (٢) والانواع الممتازة كخشب التك من الملايو والحديد من دلماشيا ، والجلود النادرة من بلاد الحبشة والنوبة ، والجواهر والأحجار الكريمة من مختلف نحاء آسيا .

وسنتكلم على كل من هذه الصناعات المختلفة مبينين أهميتها فى العصر الفاطمى .

---

(١) راجع ما كتبناه عن الغلات الزراعية ومواطنها . ص ٥٤ وما بعدها

(٢) yeHd: Histoire du Commerce, Tome I, p. 113.

الفصل الثامن

الصناعات الرئيسية

(١) صناعة النسيج

أسباب نشاط صناعة النسيج

وهذه تعد الصناعة المصرية فى هذا العصر إذ تقدمت كثيراً وتمتعت برواج كبير وزاد إنتاجها وتنوعت أصنافه من النسيج . ويرجع ذلك إلى العوامل التالية .

اتخذ الفاطميون من المنسوجات وسيلة لتحقيق أغراض سياسية كالعمل على الإشادة بمركزهم الدينى الممتاز وتركيز هذه الفكرة فى الأذهان . وكانت لهم عبارات خاصة استخدموها على الملابس والمبانى وغير ذلك فقد جاء فى قطع النسيج عبارات مثل « وفتح قريب لعبد الله وولده المنصور أبو على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين »(١) والعبارة الآتية عن الخليفة المستنصر بالله « آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه المنتظرين (٢) وغير ذلك كثير . والواقع أن الدعاية لها أصولها وقواعدها فان ذكر أمثال هذه العبارات ـ وهى من (بروتوكول) البلاط الفاطمى ـ على الدوام وعرضها على أنظار الناس له أثر نفسانى قوى فان كثرة ترديد الفكرة حتى ولو كانت خاطئة قد يؤدى إلى اعتقاد الناس فيها وإيمانهم بصحتها لأن عقلية الجماهير لها طابعها الخاص من القصور عن إدراك المغزى الحقيقى لما يراد عرضه أمامها فليس إذن من التعسف فى التفسير أن نستشف من وراء هذه العبارات التقليدية على قطع النسيج أغراضاً سياسية خاصة ، وإن الاكثار من توزيع الكسوات على الناس مما يساعد إلى حد كبير على تحقيق هذه الأهداف . وينبغى أن ننوه أن تحقيق سياسة ماقد يتم بنجاح بالإيحاء والتلميح أكثر مما يتم ذلك بالطرق الصريحة المباشرة .

---

(١) رقم القطعة فى الكتاب المذكور ٢ ٢٢ Repertoire d' Epigraphie Arabe, Tome VI,

(٢) رقم القطعة فى الكتاب المذكور ٢٦٨٥ Ibid, Tome VIII,

وقد أنشأ الخليفة المعز لدين الله دار الكسوة كان يفصل فيها أنواع الثياب والبز ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف وكان هذا العمل يكلف الدولة حوالى ستمائة ألف دينار فى السنة (١) . حقيقة كان توزيع الكسى على الناس عادة عند الخلفاء العباسيين ولهذا لم يبتدع الفاطميون سياسة جديدة ولكنهم توسعوا فى هذا العمل إلى حد كبير . ولا ريب أن الحكومة الفاطمية ما كانت لتنفق هذا المبلغ الضخم إلا إذا كانت ترجو من وراء ذلك كسباً أدبياً ومادياً كبيراً من حيث استمالة الناس واجتذاب قلوبهم بمظاهر الإنعام والعطف إذ المادة ذات أثر كبير فى حياة أغلب الناس ، تفعل فى نفوسهم أكثر مما تفعله المثل العليا وغيرها . وكانت الكسوات تفرق فى المناسبات المختلفة كغرة رمضان وأول العام وأعياد الفطر والنحر وحالات كسر الخليج والغدير على أقارب الخليفة والوزراء وكبار رجال القصر وولاة مصر والقاهرة وصغار الموظفين فى القصور وغيرها . وقد حفظ لنا المقريزى وصف كسوة فتح الخليج سنة ٥١٨ هـ وهى برسم الخليفة تختان ضمنهما بذلتان إحداهما منديلها وثوبها طميم برسم والأخرى جميعها حرير برسم الصور وكذلك مايخص أخوته وجهاته بذلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبة وبرسم الوزير بذلة مركبة مذهبة فى تخت وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بذلات مذهبة وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت وهؤلاء الميزون لكل منهم تخت وبقية مايخص المستخدمين وابن أبى الرداد — فى تخوت كل تخت فيه عدة بذلات وما يفصل برسم الغلمان الخاص عن سبعمائة قبله وخمسمائة واثنتان سقلاطون وبرسم رؤساء العشارى (٢) من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والحرير الأحمر وبرسم النوتية التى ترسم الخاص من العشارية من الشقق الاسكندرانى والكاوتات (٣) وغير ذلك (٤) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٩

(٢) العشارى نوع من المراكب يستخدمها وجوه الدولة

(٣) مفردها كاوته من الايطالية وهى طاقية يلبسها كبار القوم
الدكتور زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ص ١٤٢ حاشية رقم ٣ نقلا عن دوزى فى قاموسه عن الملابس عند العرب

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٧٢

وكان الخلفاء الفاطميون يكثرون من الإنعام على رجال الدولة بالخلع مما يجعلنا نميل الى اعتبار ذلك العمل ضربا من الإنعام بالأوسمة والأوشحة التى يمنحها رؤساء الدول فى العصر الحديث . وكانت الخلع على الأمراء الثياب الديبقى والعمائم القصب بالطراز الذهب (١) وكان للقواد نصيب وافر منها كما حدث عند خروج منجوتكين على رأس الجيش إلى حلب لإخضاع ابن سعد الدولة إذخلع عليه الخليفة العزيز بالله واشتملت الخلعة على مائة قطعة من الثياب الملونة وعشر قباب ومناطق مثقلة وأهلة وفروش وخمسين بندا (٢).

وكانت القاعدة المرعية أن يرفقوا الخلع ببراءات يصدرها ديوان الإنشاء المختص بمثل هذا العمل ، وفيما يلى نص إحدى هذه البراءات وهى من إنشاء ابن منجب الصيرفى وتاريخها عام ٥٣٥ هـ « لم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب مجزلا حظه من منائحه ومواهبه موصلا اليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه . وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك وأحراهم باستنشاق نسيمه وأخلقهم بالجزاء الأوفى منه عند فضه وتأسيسه إذ كنت فى سماء المسابقة بدراً وفى موائد المناصحة صدراً . ومن أخلص فى الطاعة سرا وجهراً وحظي في خدمة أمير المؤمنين ماعطر له وصفا وسير له ذكراً ولما أقبل هذا العهد السعيد ـ عيد الفطر ـ والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريفه أوليائه وخدمه فيه وفى المراسم التى تجاريه بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال ولا يبقى بعدها مطمح للآمال . . . (٣)

وتحدثنا المصادر العربية عن المقادير التى يحار المرء فى تصديقها من قطع النسيج المختلفة الأشكال والأنواع مما خلفه الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة مما سنذكر منه طرفا ، الأمر الذى يحملنا على اعتباره نوعا من الاختزان أسوة بالجواهر والأحجار الكريمة . ولاشك أن خزائن الأمراء والوزراء المملوءة بأنواع الكسوات كانت

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٤٠

(٢) ابن أبى ميسر : أخبار مصر ص ٤٨

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٢

رمزاً لمركزهم الأدنى ودليلا على ثرائهم كما كانوا مضطرين إلى ذلك بسبب الحاجة إلى منحها لاتباعهم وخدمهم من الرجال والنساء . وكانوا يورثون هذه الخزائن من الكسوات لآلهم وأعقابهم . ولاريب أن ضيق أبواب استثمار الأموال فى الميدان الاقتصادي حول جانباً منها إلى هذه الناحية . وكان الخلفاء إذا سخطوا على وزير أو كبير صادروا خزائن الكسوة فى داره وحملوها إلى قصورهم أو ربما تصرفوا فيها بالبيع وحصلوا على أثمانها .

ومن الأمثلة على ما كان يحوزه كبراء القوم من الملابس وقطع النسيج مايضيق فصل كهذا عن إيراده . فقد خلف الأمير جوهر من الثياب الديباج خمسة وسبعين ألفا (١) . ولماقتل برجوان وجد له مائتان وإحدى وستون بقجة من القماش وألف قميص حرير اسكندرى وألف منديل شغل الاسكندرية ومائة منديل يعنى عمامة كلها شروب ملونة معممة شائبة (٢) . واشتملت تركة السيدة رشيدة على ثلاثين ألف ثوب خسروانى وعشرين ألف من الثياب المحصنة (٣) ألواناً (٤) وبلغ عدد القطع التى خرجت من خزائن الكسوة فى أيام المأمون البطائحى سنة ٥١٦ هـ أربعة عشر ألف وثلاثمائة وخمسة قطعة . وذكر مؤلف كتاب الذخائر (٥) وقومناما أخرج من خزائن القصر — يعنى فى سنى الشدة العظمى — من سائر ألوان الخسروانى (٦) مايزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب . وارسل ناصر الدولة يطالب المستنصر بمابقى لغلمانه فذكر أنه لم يبق عنده شىء إلا ملابسه فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥١

(٢) ابن منجب : الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٨
المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥١ . وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل فى دبيق ويكون طول كل عمامة مائة ذراع وفيها رقمان منسوجة بالذهب وحدثت هذه العمائم فى عهد الخليفة العزيز بالله (الخطط ج ١ ص ٢٢٦)

(٣) أى من لون واحد

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٣

(٥) جاء فى المقريزى (الخطط ج ١ ص ٤٥٤) عن رباط بيت الخواص مكان تجاه مسجد الفقيه مجلى بن جميع بن نجا الشافعى مؤلف كتاب الذخائر وقاضى القضاة بمصر

(٦) نوع من النسيج الفاخر ينسب إلى خسرو شاه الفرس

آلاتها كاملة . قال ، « وسألت ابن عبد العزيز فقال اخرج من الخزائن ماحررت قيمته علي يدي وبحضرتي أكثر من مائة ألف قطعة . وحدثني الأمير أبو الحسن علي بن الحسن أحد مقدمي الخيميين بالقصر أن الفراشين دخلوا إلى بعض خزائن الفرش والأمتعة إلى الخزانة المعروفة بخزانة الرفوف فانزلوا منها ألفي عدل شقق طميم يهديها من سائر ألوان الخسروانى وغيره لم تستعمل بعد وجميع مافيها مذهب معمول بسائر الأشكال والصور . وأخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة خسروانى أحمر مطرز بأبيض في هديها لم يفصل من كسا بيوت كاملة بجميع آلاتها ومناطقها (١) .

وكان الطلب شديداً على مختلف أنواع النسيج ، ففضلا عن استخدامه لعمل الملابس اتخذوا من إنتاج المناسج المصرية مادة لعمل أشياء لا حصر لها مثل الخيم والمضارب والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المعمولة من الدبيقى والخسروانى والديباج والأرمنى والبهنساوى وصنعوا من القماش المساند والمخاد والمساود والمراتب والبسط والمقاطع والستور والعصائب النسائيات والفوط والخرائط(٢) للسيوف من الديباج الأحمر والأصفر(٣)، وصنعوا منها البنود والرايات ، وكانوا يجعلون مكان الجلد والسروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرها من الألوان والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير(٤) . ومن القماش اتخذوا أغطية الصوانى وقوارات شرب تسكون من تحت العراض والطرح من فوق القوارات الاسكندرانى التى تشد على الموائد (٥) ، وما إلى ذلك من الأدوات التى اقتضتها حياة الترف وساعد عليها توافر المال فى أيدى الخلفاء وكبار القوم وأثرياء التجار وأغنياء أمراء الاقطاع .

ومن الظروف التى ساعدت على النشاط الصناعى اتساع نطاق العلاقات التجارية

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٢
(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٧ و ٤١٨
(٣) شرحه جـ ١ ص ٤٥٠
(٤) شرحه جـ ١ ص ٤٤٧
(٥) شرحه جـ ١ ص ٤٧٢

مع البلاد الأجنبية على ماسنوضحه حين كلامنا على التجارة الخارجية فى العصر الفاطمى. وقد بلغ مايصدر إلى العراق وحده ماقيمته ثلاثون ألف دينار فى السنة (١) ومن المؤكد نتيجة للتوسع التجارى أن مقادير كبيرة من إنتاج المناسج المصرية من الأنواع الممتازة(٢) والسميكة كان يصدر إلى الخارج . وربما كانت الحكومة الفاطمية تشجع هذا الإنتاج الصناعى حتى تستغل الفائض عن حاجة السوق المحلية فى التبادل التجارى كى تحصل على مايلزمها من مواد لاتتوافر فى البلاد .

وأخيراً ينبغى ألا نغفل أثر مجهود الحكومة الفاطمية نفسها فى النهوض بصناعة النسيج فقد كانت تدير لحسابها عدداً من المصانع وتشرف على إدارتها إشرافا منظما دقيقا يكفل لها إنتاج الأنواع الفاخرة وبخاصة مايتصل بكسوة الخليفة نفسه وأهل بيته وخاصته فضلا عن كسوة الكعبة الشريفة . وأنشأ الخلفاء دار الديباج وكان يعمل فيها الحرير الديباج ويتولاها الأماثل والأعيان(٣) . وكان فى خزانة السروج عدد كبير من الصناع لايفترون عن العمل (٤) ومنهم المختصون فى النسيج نظرا لاستخدام القماش فى عمل السروج كما قدمنا . وكذلك كان فى خزانة البنود ثلاثة آلاف صانع لصنع هذه الأشياء ومعظمها من أفخر أنواع النسيج .

المنسوجات التيلية وكان الكتان المادة الرئيسية المستعملة فى النسيج بسبب انتشار زراعته فى جهات كثيرة فى مصر وخاصة فى الدلتا والفيوم . وهذا يفسر لنا ناحية من النواحى التي استدعت تركز صناعة المنسوجات التيلية فى مصر الشمالية والوسطى ، وقد اختصت الأولى بصنع الأنواع الدقيقة من الشرب والدبيقى

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٧٧

(٢) ذكر ناصر خسرو أن قماش البوقلمون الذى لا يصنع إلا فى تنيس كان يصدر الى المشرق والمغرب . Sefer Nemeh, p. lll

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٤

(٤) شرحه جـ ١ ص ٤١٨

والبوقلمون(١) ، وكانت المراكز الرئيسية لهذه الصناعة الاسكندرية ودمياط وتنيس ودميره وبوره وتنيس ودبيق وشطا . ويظهر أن شدة الإقبال فى هذا العصر استلزم انتشار هذه الصناعة فى مدن أخرى لم يكن لها وجود فى العصر السابق للفاطميين . ولهذا نجد على بعض قطع النسيج التى تنتمى إلى العصر الفاطمى اسمين جديدين هما تونه ودبقو (٢) وإن كان لايزال إسم البلدة الأخيرة وموقعها غامضين . ولا بد أنه كانت هناك أماكن أخرى كثيرة فى الوجه البحرى اشتغل أهلها بالنسج ولم تصل أسماؤها إلينا أو لم يعن المؤرخون بذكرها . وقد اختصت بعض المراكز التى ذكرناها بأنواع معينة من النسيج . فاشتهرت دبيق بعمل النسيج الموشى بالحرير والذهب ومالبث أن أصبح هذا إسما لنوع من النسيج كان يصنع فيها وفى غيرها من البلاد كأسيوط(٣). وذكر المقريزي في كتابه (الخطط ج ١ ص ٢٢٦) أنهم كانوا يصنعون فى دبيق العمائم الشرب المذهبة وطول العمامة مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فيبلغ ثمن العمامة خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل . وقد اتخذت هذه العمائم لأول مرة فى أيام العزيز بالله سنة خمس وستين وثلثمائة . وكانت تعمل كسوة

---

(١) Sefer Nameh, p. III.
نسبة الى دبيق ، وهى من القرية التى كانت تابعة لمدينة دمياط ، واشتهرت بصناعة المنسوجات الموشاة بالذهب . والبوقلمون اسم أطلق على نوع من النسيج كان يصنع فى بلاد اليونان ، ثم فى مصر خاصة بتنيس ، ومن خواصه أنه يظهر بألوان شتى على حسب تعرضه للشمس والوضع الذى يكون فيه ، واختلاف ساعات النهار (الدكتور زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ص ١٤٥ حاشية رقم ٢)

(٢) نجد اسمها على قطعتين ذكرت أوصافهما فى كتاب Repertoire d' Epigraphie Arabe, Tome VI, No. 2048 et 2083.

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٢٦ ، الدكتور زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ص ١٢٩ حاشية رقم ١

الكعبة فى شطا (١) وكان يحاك فى تنيس ثياب الشروب وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لايدخل فيه من الغزل سدى ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بضاعة محكمة لم تكن تحتاج إلى تفصيل أو خياطة وكان ثمنه يبلغ ألف دينار (٢). وقد وصف ياقوت القيس بأنها قرية فى مديرية الشرقية نسب إليها القماش القيسى وكان يحتوى على الحرير (٣)، ويبدو أن شهرة الأسكندرية بالنسج كانت عظيمة حتى أن الصناع فى أيام ابن الحاج نفسه كانوا يقلدون إنتاج مناسجها ويبيعونه على انه المصنوع بها (٤).

أنواع جديدة : واشتغلت المناسج المصرية فى خلافة العزيز بالله بصنع نوعين جديدين من النسيج هما العتابى (٥)، والسقلاطون وينسب الأول (٦) إلى بغداد والثانى إلى بلاد الروم ويمكن تعليل ذلك بحسن العلاقة بين العزيز بالله وعضد الدولة والصلح مع الروم سنة ٣٧٧ هـ (٧). ويظهر أن الاتصال التجارى مع الدولة البزنطية وسفر بعض المصريين إلى عاصمة تلك الدولة وورود التجار منها إلى مصر جعل فى الامكان اقتباس أنواع ممتازة مما يتفق وميول الفاطميين ونعلم أن الامبراطور أرسل هدية ثمينة إلى مصر ويرجح أنها اشتملت على نوع ممتاز من القماش أعجب به الخليفة وعمل الصناع المصريون على تقليده . ويدل ما أخرج من خزائن المستنصر فى عهد الشدة العظمى على وجود أنواع لم يعرفها ناصر خسرو — أثناء زيارته لمصر — مثل الخسروانى

---

(١) شرحه ج ١ ص ٢٢٦

(٢) شرحه ج ١ ص ١٧٧

(٣) معجم البلدان (راجع مادة قيس)

(٤) المدخل ج ٤ ص ٦٥ « وبعضهم — أى التجار — يشترون القماش الخام الأبيض من بلاد مختلفة بما يشبه قماش الاسكندرية ثم يقصرونه بالاسكندرية ويبيعونه على انه اسكندراني »

(٥) نوع من الثياب الحريرية ينسب الى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب وكان هذا النوع يصنع فى بغداد (راجع Dozy: Supplément)

(٦) السقلاطون : كلمة يونانية تطلق على ثياب كتان موشية (أنظر كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ لناشره فيليب حتى ص ١١ فى الحاشية)

(٧) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٥٤

والطميم والأرمنى والبهنساوى والكردوانى والسندسى (١) وان اسماء بعض هذه الانواع ينم عن أصلها الأجنبى. والذى نراه فى هذا الصدد أن الخلفاء الفاطميين رغبة منهم فى أن يبز بلاطهم نظيره فى بغداد لم يتوانوا مطلقا فى البحث عن الانواع الممتازة فى الدول المختلفة حتى يصنع مثلها فى مصر. ويؤيد هذا ماروا المقريزى عن تكليفهم بعض الوكلاء فى شراء التحف النادرة والانواع الثمينة من مختلف الجهات (٢). وعمل كهذا كفيل أن ينقل إلى الديار المصرية ثمرة خبرة العمال فى الأمم الأخرى ومهارتهم .

وتوطدت صناعة الأقمشة التيلية السميكة فى مصر الوسطى بسبب اعتماد هذه المنطقة على ما كان يزرع فى الفيوم من الكتان ولم يكن من نوع الجيد ، وأهم المراكز الصناعية فى تلك المنطقة أهناس والبهنسا والاشمونين (٣) وكان أهل البهنسا يصنعون الستور المنسوبة إليها وينسجون المقاطيع والمضارب الكبار والثياب المحبرة(٤) . وكانوا يعملون من الستور ما يبلغ طول الواحد منها ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج مائتا مثقال ذهب (٥) واشتهرت كذلك بصنع الفساطيط الكبار والطرف

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٣٧

(٢) شرحه ج ١ ص ٢٣٧

(٣) مرزوق : الزخرفة المنسوجة ص ٦٤ وقد ذكر اسامة بن منقذ نوعا من الثياب هو المسنجب وهو الفرو المتخذ من جلود السنجاب (انظر كتاب الاعتبار : ص ١١ المتن والحاشية)

٤) الخطط ج ١ ص ٢٣٧

(٥) اشتهرت الأشمونين بصناعة القماش المنسوب اليها كما يستدل من بعض أوراق البردى التى يرجع تاريخها الى القرنين الثانى والثالث (أنظر : A. Grohman: Contributions to the Topography of Ashmunein

ويقول ابن حوقل (المسالك والممالك ص ١٠٧) ويرتفع منها ثياب كثيرة . ولكنا لم نعثر على قطعة نسيج تحمل طرازها على كثرة القطع التى وصفت فى كتاب Repertoire d' Epigraphie Arabe ويظهر أنها فقدت أهميتها منذ القرن الخامس

السلطانية . وقد ذكر ابن حوقل (المسالك والممالك ص ١٠٨) أن الفيوم كان يسكنها فى أيامه ـ أى فى أوائل العصر الفاطمى ـ الصناع وأرباب الحرف والنساجون خاصة ، ولكنه لم يحدد نوع المادة التى استخدمها هؤلاء النساجون . ولما كانت المنطقة كلها مشهورة بزراعة الكتان صار من المرجح اشتغال بعض النساجين بعمل المنسوجات وغيرها من السلع من هذا النبات . وقد أورد ليو الافريقى إسما آخر حيث قال « وفي بنى سويف منسوجات من أنواع ممتازة (١) » . وبرغم أن المؤلف متأخر كثيرا عن العصر الذى ندرسه وبرغم أننا لم نعثر على ذكر لها فى كتب المؤرخين والجغرافيين المعاصرين للفاطميين ولم نوفق إلى قطع تحمل طراز هذه المدينة فمن الجائز أنها هى الأخرى اشتغلت بهذه الصناعة ولكن على نطاق ضيق أو لم يكن الكتان المادة الأساسية المستعملة .

الصوف وامتازت مصر الوسطى أيضا والعليا بصناعة المنسوجات الصوفية كالملابس والشيلان والأبسطة ولعل هذا راجع إلى أن الصوف كان من غلات الصعيد (٢) لكثرة تربية الاغنام على أيدى القبائل العربية التى استوطنت مديريات الفيومية والأسيوطية والإخميمية وغيرها كما نعرف ذلك من دراسة توزيع القبائل العربية الذى أورده المقريزى فى رسالته الصغيرة « البيان والاعراب عمن بارض بمصر من الاعراب » .

وقد اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش وأخميم بالفرش المقطوع (٤) . وكان للمصريين مهارة فائقة فى صناعة الأصواف حتى قلد أهل أسيوط النسيج الذى اختصت به بلاد

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٠٥

(٢) Description de l' Afrique, Tome III, p. 397.

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣

(٤) أى قطعا صغيرة ولعل هذا راجع الى بساطة الانوال التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت

أرمنيا وصنعوا نوعا من العمائم لانظير له فى العالم وعمت شهرة هذه العمائم الآفاق . وكانت مصر تصدر مقادير كبيرة منها إلى الأقطار الأخرى وأطلق أهل فارس على هذا النسيج اسم « المصرى » . أما طرطوشة فاشتغلت بعمل ثياب الصوف الرفيعة (١). وذكر أبو صالح الأرمنى مركزا لعمل المنسوجات من شعر المـاعز هو سمالوص — ويقصد سمالوط — وقد امتدح هذا النوع فقال إنه لامثيل له فى العالم(٢) .

الحرير : أما الحرير فلم تـكن مصر من البلاد التى تعنى بتربية دودة القز لأجله ولذا كان استعماله منه خالصا محدوداً كما كان يمزج بالمواد الليفية الاخرى مثل الـكتان أو تعمل منه خيوط كالتى نراها على ما بأيدينا من قطع النسيج والمحفوظة بدور الآثار . وقـد اختلف المختصون فى هذا الموضوع ففريق يرى أن المناسج المصرية لم تخرج أنسجة من الحرير الخالص قبل عصر المماليك (٣) ، ولـكنا نرجح وجود هذه الصناعة من الحرير الخالص وأكبر مركز لها مدينة الاسكندرية وتتوافر الأدلة التاريخية على صحة رأينا فقد خلفت ست الملك أخت الخليفة المعز لدين الله ثلاثين ألف قطعة من شقق الحرير الاحمر (٤) ولما قتل برجوان وجد له ألف قميص حرير اسكندرى(٥)، وكانوا يعملون الحرير الديباج فى ديباج بالقاهرة (٦) . وأرسل صلاح الدين الأيوبى إلى نور الدين أربعة وعشرين ثوبا من الحرير ومثلها من الوشي حريرية(٧)، ومن المرجح أن هذه كلها من انتاج المناسج المصرية . ويحتوى كتاب جامع الـكتابات الـكوفية على قطعتين من الحرير (٨) .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢

(٢) Churches and Monasteries of Egypt. p. 63.

(٣) عبر عن هذا الرأى الدكتور كونيل (راجـع كتاب الزخرفة المنسوجة لمرزوق ص ٧٠)

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٢٢

(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٥١

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤

(٧) أبو شامه : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢١٩

(٨) Repertoire d' Epigraphie Arade, Tome VI

والقطعتان هما رقم ٢٢١٣ ورقم ٢٤٢٠ والأولى من الحرير الأزرق والثانية من حرير ذى لون كستنائى

القطن : وبرغم زراعته فى بعض جهات مصر يبدو أن مقاديره كانت ضئيلة ولم يعمل نسيج من القطن الخالص(١) إذ لم يمدنا المؤرخون بشىء عن هذا فى العصر الفاطمى كما لم نعثر فى كتاب « جامع الكتابات الكوفية » على قطعة صنعت سداء ولحمة من هذه المادة . ولهذا نرجح أنهم كانوا يمزجونه بغيره من المواد الليفية

وفرة الانتاج : والشواهد كثيرة على وفرة انتاج البلاد من النسيج . روى المسبحى فى حوادث عام ٣٨٤ هـ « وفى ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهدية وهى اسفاط وتخوت وصناديق مال وقال إن المتأخرات لمدة سنوات بلغت ألف ألف دينار وألفى ألف درهم (٢) وبغض النظر عن طابع المبالغة فى هذه الأرقام فلا شك أنها تدل على ما كانت الحكومه الفاطمية تحصل عليه من إيراد كبير بسبب الرسوم التى فرضتها على الصناعة المذكورة فى مراحلها المختلفة .

وإن نظرة نلقيها على الوصف الذي حفظه لنا المقريزى عن خزائن القصور الفاطمية ومحتوياتها كفيلة ببيان المقادير الهائلة التي عملها الصناع المصريون وذلك من الأنواع الفاخرة وحدها فضلا عن غيرها مما كانت تستهلكه الطبقة الوسطى من المجتمع وعامة الناس، وهذا كله خلاف ما كانت تصدره مصر إلى غيرها من البلدان . وقد قوم بعض ما أخرج من خزائن الفرش والامتعة أيام الشدة العظمى من سائر الوان الخسروانى مايزيد على خمسين ألف قطعة (٣) وفى رواية أخرى لأبى المحاسن « وأحصى من الثياب التى بيعت فى الغلاء أيام المستنصر ثمانون ألف ثوب »(٤) وقد ذكرنا من قبل أمثلة عدة فلا داعي إلى العودة إليها .

---

(١) « ولم يوجد القطن فى منسوجات تحمل اسم طراز مصرى . . . كما أن تحليل الخرق المصنوع منها الورق فى العصر الفاطمى أظهر أنها من الكتاب المضروب بالقطن »
Lamm: Cotton in Medieval Textile, p. 5.

ويقول الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه (Les Tulunides) ص ٢٣٩ إنهم كانوا فى العصر الطولونى ينسجون الكتان والصوف والقطن . ولكنه لم يوضح هل كانوا يتخذون القطن خالصا أم ممزوجا بغيره

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٨١

(٣) شرحه جـ ١ ص ٤١٦

(٤) النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ١٧

وتمتعت تجارة المنسوجات برواج عظيم واقتنى المشتغلون بها ثروات ضخمة حتى قيل إن أحد تجار البز خلف تركة قدرها ألف ألف دينار (١) وكان في مدينة مصر وحدها مائتا خان لبيع المنسوجات لا يقل ايجار الواحد منها عن اثنى عشر ألف دينار فى السنة(٢) . وهذه المبالغة التي فاقت الحد لا نستغربها من ناصر خسرو ولكنها مثال لحالة أدهشت الرجل فغالى فى الاعراب عن اعجابه . وهو يريد الافصاح عن رخاء التجار وعن الاسواق العامرة بالمنسوجات. وقد وصف الكاتب الصيني (Chou-Ju-Kua) أسواق القاهرة فقال انها ملأى باللغط والضجيج والحركة وغاصة بالديباج والدمقس المنسوج بخيوط الذهب والفضة . وأما الصناع ففيهم الروح الفنية الحقة (٣) .

ملاحظات على صناعة النسيج : وامتاز العصر الفاطمى بازدهار فن الزخرفة المنسوجة . وقد عظم الشغف بالزخارف فى القرن الخامس الهجرى وفيها رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية مثل « الفيل المخيل والمطوس والمطير وغير ذلك من سائر الوحوش والطير والآدميين من سائر الاشكال والصور البديعة الرائعة ومنها الساذج والمنقوش فى ظاهره بغرائب النقوش »(٤). وفى أواخر القرن الخامس تتطور الزخرفة وتمزج الألوان وتوزع بطريقة يخيل معها للرائى أن فى الزخارف شيئا من البروز .

وتمتاز الزخارف الخطية فى العصر الفاطمى بجمالها وتنوعها فتارة نرى سيقان الحروف تطول وأواخر الكلمات تخرج منها فروع نباتية تميل إلى اليمين وتشتق منها فروع أخرى تنتهى برسوم وريقات وزهور. وتارة تري الزخارف تزداد تطورا فتخرج الفروع النباتية من جسم الحروف نفسها ثم تتشعب راسمة من الوريقات والزهور ما يكسو كل فراغ بين الحروف ويملأ الارضية كثيرا ، وكأنها بساط من النقوش النباتية الجميلة . وفى أواخر العصر الفاطمي أخذت الطريق تتمهد لسيادة الخط النسخ ، كما أن رسوم الحيوانات والطيور التى بلغت أحيانا درجة عظيمة من

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٢١

(٢) Nasiri Khosrou: Sefer Nemeh, p. 128.

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ص ١٣٢ نقلا عن كتاب المؤلف الصينى ص ١١٦

(٤) المقريزى : جـ ١ ص ٤١٨

الاتقان ومحاكاة الطبيعة بأمانة كبيرة تطورت أيضا حتى فقدت خواصها وصارت أشكال تقليدية مهذبة لاتمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة (١) .

ونلاحظ من دراسة أوصاف قطع النسيج (٢) الفاطمية كثرة استعمال خيوط الحرير من مختلف الألوان مع مراعاة التناسق التام وكانوا يتخذون أحيانا خيوط الذهب (انظر القطعة رقم ٢٢٧٥ فى الجزء السادس من كتاب جامع الكتابات العربية) . أما الكتابة على قطعة النسيج فتشمل اسم الخليفة وحده أو مع اسم الوزير الذى أمر بصنعها (٣) ثم مكان الصناعة (٤) وتاريخها ونوع الطراز ، فضلا عن عبارات تقليدية تنم عن مركز الخلفاء الدينى . وكانوا يكتبون أحيانا اسم المشرف على العمل فى الطراز ولكن قلما يذكرون اسم الصانع نفسه (٥) . ونعلم من فحص القطع المشار إليها بوجود نوعين من الطراز (٦) وهما طراز العامة وطراز الخاصة . ونظن أن

(١) اعتمدنا فى هذا الموضوع الفنى على كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ و ٢٥٣ و ٢٥٤ . وكذلك على كتاب « جوامع القاهرة » بالفرنسية تأليف فييت الجزء الأول صحيفة ٩٥

(٢) راجع الأجزاء ٥ و ٦ و ٧ و ٨ من كتاب Repertoire d' Epigraphie Arade.

(٣) يقول كاترمير (يظهر أن عادة كتابة اسم من تصنع له القطعة كانت شائعة من قديم الزمان) Mémoires Géographiques et Historiques, Tome I, p. 194. ويعتمد فى هذا على ما قاله المقريزى عن البهنسا (وإذا صنع بها شيء من الستور والأكسية والثياب . . . فلا بد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا دالا على ذلك مضوا جيلا بعد جيل) راجع الخطط جـ ١ ص ٢٣٧

(٤) اغفال مكان الصناعة نادر كما فى قطعة رقم ٢٢٤٦ فى كتاب Repertoire d' Epigraphie Arabe, TomeVII. مع أن عليها كتابة طويلة

(٥) Repertoire d' Epigraphie Arabe, Tome VI.
نجد على قطعة برقم ٢١٤٠ العبارة الآتية (يارب سلم وبارك برحمتك يا أرحم الراحمين . . . الحسن بن عبد العزيز) ولعل هذا الاسم صانع القطعة

(٦) ينبغى ألا يتبادر الى الذهن أن المسلمين هم الذين ابتدعوا هذا النظام بل إنه مقتبس عن البيزنطيين حيث كانوا ينشئون مصانع حكومية عرفت باسم Gnecées impêriaux وكانت تحتكر صناعة الأقمشة الفاخرة (انظر Hanotaux: Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV p. 174.

المراد منها المصانع الحكومية والمصانع الأهلية ، كما نستدل من كثرة استعمال اطراز العامة لصنع مايلزم البلاط الفاطمى على أن انتاج مصانع الحكومة لم يكن كافيا لسد طلبات الحكومة الفاطمية ولذا كانت تستولى على جانب مما تنتجه المصانع الأهلية . وقد كان بالمدينة الواحدة أكثر من دار واحدة للطراز (١) .

التنظيم الصناعى : لكى تسهل معالجة هذا الموضوع ينبغي أن نميز بين أنواع ثلاثة من الصناعة : ـ

أولا ـ الصناعة الريفية والغرض منها المنسوجات التى يحتاج إليها أهل القرية وهذه المنسوجات من النوع الرخيص الذى يتفق ومستوى المعيشة .

وكانت عملية الغزل يقوم بها القرويات او النسيج يتولى عمله الرجال ، أما الآلات المستعملة فعبارة عن مغازل وأنوال خشبية بسيطة .

ثانيا ـ المصانع الأهلية التى يملكها الأفراد وهذا نظام يجمع بين الصناعة المنزلية والنظام الرأسمالى . وهنا نجد أنواعا مختلفة فقد يملك الصانع محلا صغيرا يشتغل فيه بنفسه أو بمساعدة غيره ، وقد يكون العمل فى نفس البيت الذى يقطن فيه ، ومن أمثلة هذه المحلات الصغيرة ما رواه ابن الزيات عن أبى عبد الله محمد بن أبى الفرح ابن ابراهيم المعروف بالكيزانى المتوفى بعد الخمسمائة من الهجرة « وكان له معمل قزازة وكان يدير الدولاب بيده (٢) » . أما الغزل فكان النساجون يحصلون عليه من الأسواق حيث تجىء النساء لبيع ماقمن بغزله كما يستدل من عبارة لابن الزيات (١) أو من الغزالين المختصين بهذه العمل (٤).ولا شك أن هذه المحال الصغيرة

---

(١) قال ابن حوقل عن طحا مدينة فيها خير طراز (المسالك والممالك ص ١٠٥)

(٢) الكواكب السيارة ص ٣٠٣

(٣) الكواكب السيارة ص ٣٣ (وجاءت امرأة تبيع غزلها)

(٤) ونعرف هذا من عبارة المقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٩٧) « وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجيساد عدة حملوا منها ما قدروا عليه وبقى منها ما كسره الركابية ومن مجراهم كانوا يبيعونه للغزالين وصناع المراذن « المراذن معناها المغازل »

كانت منبثة فى مختلف أنحاء البلاد واستمر هذا النظام طيلة العصور الوسطى كما يستدل من كلام ابن الحاج فى كتابه « المدخل ج ٤ ص ١٥ » إذا قال عن الصناع « لايخلو حالهم من قسمين: إما أن يكون صانعا يعمل بالأجرة عند غيره وإما أن يعمل لنفسه وهو أيضا على قسمين : احدهما أن يكون الناس يأتون بالغزل ينسجه لهم وهذا يسمونه بالقبالة، والقسم الثانى أن يشترى الغزل وينسجه لنفسه ويبيعه » . وهكذا نجد الورش الصغيرة حيث يمتلك أصحابها رأس المال والآلات والعمل .

أما في البلاد الكبيرة مثل تنيس ودمياط فيظهر أن بعض السماسرة كانوا يتولون هذا العمل فيسلمون الغزل إلى عمال يقيمون فى غرف يستأجرونها فى أبنية معينة ويقوم النساجون بنسجها ثم يسلمونها أثوابا . وقد أورد القزوينى شيئاً عن هذا نقتبسه لأهميته : « من ظريف أمر دمياط أن فى قبليها على الخليج غرفا تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكم لعمل ثياب الشرب فيها فان عمل بها ثوب ونقل إلى غير هذه الغرف علم بذلك السمسار المبتاع للثوب وينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب(١). فهنا العامل يستأجر محلا للعمل فيه ثم يبيع ما يصنعه للسمسار الذى يراقبه مراقبة دقيقة ويظهر أن هذه المعامل كانت مزودة بالآلات إذ يقول القزوينى عن الصانع « فلا يكاد يبحث آلاتها » وذلك بعد استئجارها ، أما من الذى يملك هذه الغرف فالمؤلف المذكور لايوضح ذلك والذى نراه أنها إما ملك للحكومة(٢) وأما ملك لطبقة من الرأسماليين ونرجح أن تكون هؤلاء هم السماسرة أنفسهم ويصح أن تكون هذه الأماكن ما أطلق عليه اسم « طراز العامة » . وكانت القاعدة أنه بعد تمام عملية النسيج تسلم إلى عمال آخرين لكل منهم عمل اختص به فمنهم من يطويها ويشدها بالقش ويشدها في السفط ويختمها وكان لكل واحد من هؤلاء رسم يتقاضاه نظير عمله (٣) . ولابد أن أرباب هذا المعامل الكبيرة كانوا يديرونها

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٢٩

(٢) هذا ما ذكره ناصر خسرو عن تنيس : Sefer Nemeb, p. 127.

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٣

بنظام دقيق ويشرفون على العمال بعناية ويقيدون كافة نفقات الانتاج حتى يكون العمل مجزيا بالنسبة إليهم .

وكانت هذه الصناعة مصدر رخاء وثروة للمشتغلين بها سواء كانوا من أصحاب المصانع أو من تجار المنسوجات (١) وحتى العمال أنفسهم كانوا يقبلون على عملهم بسرور (٢) بسبب الأجور التى كانت تدفع لهم بلا شك .

وقد ذكر ناصرخسرو مراراً المخازن والمتاجر التى كانت تؤجرها الحكومة لصناع وتجار المنسوجات . وينبغى ألا نظن أن معنى هذا أن الحكومة الفاطمية كانت تحتكر صناعة النسج أو تجارتها وكل مافى الامر أن الحكومة كانت تنظر إلى تأجير ماتملك من مبان كمصدر إيراد لها وليس لهذا علاقة بحرية الصناعة .

ثالثاً — المصانع الحكومية وكانت ذات نظام دقيق وتختص بصنع مايلزم البلاط الفاطمى ولا يباع انتاجها للأفراد (٣) وكانوا يختارون للاشراف على العمل فى طراز الخاصة موظفا كبيرا من الأعيان والاماثل من أرباب العمائم والسيوف يتبعه مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى وتحت امرته عشارى دعاس وثلاث مراكب من الدكاسات (٤) ولها رؤساء ونواتية نفقاتهم جارية من مال الديوان فاذا ما عدت الاستعمالات الخاصة التى منها المظلة وبدلتها والبدنة(٥)واللباس الجمعى(٦)حملها

---

(١) كان أهل تنيس وأكثرهم حاكة مياسير اصحاب ثراء (المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٨٧) وقد ذكرنا من قبل عبارة ناصر خسرو عن ايجار خانات المنسوجات (سفرنامه ص ١٢٨)

(٢) Nasiri Khosrou: Sefer Nemeh, p. 113.
Ibid, p. 113.

(٣) نوع من المراكب كان يسمى فى عصر المماليك الحراقة Dozy: Dictionnaire

(٤) نوع من المراكب التى كانوا يخصصونها فى عصر الفاطميين لكبار رجال الدولة

(٥) المظلة قبة من حرير مزركش بالذهب كانت تحمل على رأس الخليفة فى المواكب وتشابه لون الثياب التى يلبسها . أما البدنة فثوب ينسج للخليفة خاصة ليس فيه من الغزل الا أوقيتين وباقيه مغزول بالذهب

(٦) ما كان يلبسه الخليفة فى أيام الجمع

ناظر الطراز إلى القاهرة حيث يبالغ فى اكرامه واحترامه بوضع دابة من دواب الخليفة تحت تصرفه وينزل فى منظرة الغزالة وتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين علي الدولة ويخلع عليه بين يدى الخليفة باطنا (١) ولا يخلع على أحد كذلك سواه . وإذا عاقته ظروف العمل أو غيره عن التوجه إلى القاهرة بنفسه أناب عنه شخصا آخر يشترط أن يكون أبنه أو أخوه الامر الذى يدل دلالة واضحة على مبلغ اهتمام الحكومة بهذا العمل والثقة التى يلزم توافرها فيمن تسند إليه إدارته . وكان للطراز ناظر ومشارف ومتول وشاهدان . ولا بد أن يكون الغرض من هذا التنظيم الاشراف الدقيق علي صناعة النسيج فى كل مراحلها ومراقبة المشتغلين بها وعمل الحسابات اللازمة .

وكانوا إذا احتاجوا إلى عمل شيء من الامتعة صدرت به تذكرة من ديوان الخزانة وسيرت إلى موظفى الطراز مقرونة بما تقرر من نفقاتها من المال والذهب المغزول(٢) . ومعنى هذا وجود إدارة مركزية بالقاهرة يتبعها الطراز فى تنيس ودمياط وغيرهما وهذه الادارة هى التي كانت تقدر ما يلزم من الملابس وتصدر التعليمات بصدد صناعتها وتتولى بيان النفقات المختلفة . وهذا كله شاهد بدقة تنظيم هذه المنشئات الحكومية .

وقد أنشأ المعز فى القاهرة دار الكسوة لتفصيل الثياب التى يراد توزيعها علي مختلف أصناف الناس وكانت الخدمة فيها ذات رتبة عظيمة وكان بها خزانتان . فالظاهرة يتولاها أكبر حواشى الخليفة من الاستاذين أو غيرهم وبها صاحب المقص أى رئيس الخياطين . أما الخزانة الباطنة فينقل اليها ما هو خاص بلباس الخليفة نفسه وكانت تتولاها امرأة تنعت بنزيل الخزان وتحت أمرتها ثلاثون جارية(٣) . ومن المنشئات الحكومية خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهره (٤) وقد بنى يعقوب بن

---

(١) أى الملابس الداخلية

(٢) راجع ما كتبه عن الطراز وعمله واختصاصه : —

ا) ابن مماتى : قوانين الدواوين (مخطوط) ص ١٥١

ب) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٤

ج) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٩ — ٤٧٠

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٣

(٤) شرحه ج ١ ٤٣٣

كلس داراً عرفت بعد الوزير بدر الجمالى باسم دار الديباج (١) بسبب نوع النسيج الذى كان يعمل بها .

الحكومة الفاطمية والصناعة استغلت الحكومة الفاطمية التوسع العظيم فى الصناعات عامة والنسيج خاصة ففرضت الرسوم العالية خاصة على الكماليات كالأنواع الفاخرة من المنسوجات وهو ما يتمشى مع أحدث المبادىء الاقتصادية التى تعتنقها الحكومات اليوم . وقد نوه المقدسى بثقل الضرائب فى تنيس ودمياط خاصة (٢) بصفتهما من أكبر المراكز للانتاج وقدر ناصرخسروا الخراج اليومى لتنيس وحدها بألف دينار وكانوا يحددون يوما لجمع الخراج مرة واحدة (٣) ومعنى هذا أن خراج هذه المدينة الصناعية يربو على ثلث مليون دينار فى السنة حتى أن متأخرات ثلاث سنوات بلغت ألف ألف دينار والفى ألف درهم (٤) أى أن هذا الرقم يمثل ضرائب السنوات الثلاث . ونحن لا نقبل هذه الأرقام بأى حال من الأحوال لما يشوبها من طابع المغالاة الشديدة . وهذا الغلو لا نعجب لصدوره من ناصر خسرو الذى عجب بكل شىء فى مصر الفاطمية كما أن عدم وصول السجلات الرسمية الينا يحملنا على تقبل الكثير من الروايات عن المسائل المالية بأشد الحذر . وبرغم هذا لا يسعنا إلا أن نعترف أن إيراد الضرائب على الصناعات كان عنصرا هاما فى ميزانية الدولة الفاطمية .

وقد ذكر المقريزى عبارة فيها نوع من الغموض إذ نسب إلى يعقوب بن كلس أنه استأصل صناعة تنيس ودمياط بالنوائب (٥) وهو بذلك يقصد الضرائب التى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٤ . وكان يشرف عليها موظف كبير فقد ذكر المقريزى (شرحه جـ٢ ص ٨١) فى وصف حمام بن قرقة : أنشأها ـ أى الحمام ـ أبو سعيد ابن قرقة الحكيم متولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢١٣

(٣) Sefer Nemeh, p. 113.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٨١

(٥) شرحه جـ ١ ص ١٧٢

قررها الوزير على الصناعات والمشتغلين بها فى هذين البلدين . وقد يبدو من ظاهر هذه العبارات أن الحكومة عملت على قتل الصناعة الأهلية تمهيدا لاحتكارها فلو كان هذا صحيحا لكان من الصعب أن نصدق كلام المقريزى نفسه والمقدسى وناصرخسرو والإدريسى وغيرهم عن الصناعة المصرية فى العصر الفاطمي ونشاطها واتساع نطاقها . وكيف يتفق استئصالها مع البيانات التى تذكرنا بقصص « ألف ليلة وليلة » مما أفرد له المقريزى صفحات حين وصف لنا بأسلوبه الدقيق الممتع ما كانت تحويه خزائن القصور الفاطمية والتى بلغ ثمن ما نهب منها فى فترة وجيزة ثلاثين ألف ألف دينار (١).

والذى نراه بصدد عبارة المؤرخ المصرى الكبير أنه بالغ كثيرا بشأن هذه « النوائب » ومما نلاحظه من دراسة كلام المقريزي على مختلف أنواع المكوس أنه كان يستنكر كثرتها وشدتها ويمتدح من الخلفاء والسلاطين من خفف وطأتها أو أمر برفعها، بل إن ابن جبير الذى زار مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنوات قلائل أشاد بما الغاه صلاح الدين الأيوبى من مكوس كانت تثقل كاهل الصناعة والتجارة الداخلية فى عصر الفاطميين وطالبه بالغاء ما تبقى منها (٢) . ويخيل الينا أن أمثال هؤلاء الكتاب كانوا يدعون فى تلك العصور — ولو بطريق غير مباشر إلى تطبيق مبادىء سياسة الحرية الاقتصادية Laisse Faire (٣)وهى السياسة التى نادى بها جماعة الطبعيين من أرباب المذاهب الاقتصادية .

ولم يقف تدخل الحكومة الفاطمية عند حد فرض الرسوم على الصناعة بل شمل الإشراف الدقيق على عملية البيع والاصدار فكان البيع لايتم الاعلي أيدى السماسرة وبعد أن يختم عليها بخاتم الحكومة وتفتش المراكب عند إبحارها من الميناء كما فى

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٦

(٢) كتاب الرحلة ص ٥٦

(٣) ظهرت مدرسة الطبعيين بشكل واضح فى فرنسا فى القرن الثامن عشر الميلادى وزعيمها كينای Quesnay وقد دعا هؤلاء الاقتصاديون الى الحرية فى الميدان الاقتصادى فطالبوا بحرية العمل والصناعة والتجارة وحملوا على الاحتكارات والرسوم الداخلية الجمركية والنقابات الطائفية .

جالة شطا (١) . ونعتقد أن الغرض من هذا النظام الشديد ضبط عمليات الصناعة والبيع حتى يتيسر تقدير الضرائب عليها . ولا شك أن قيام سماسرة معروفين لدى الحكومة مما يسهل أمر جباية هذه الضرائب . ولم يذكر لنا المقدسى أو غيره الفائدة التى كانت تعود على هؤلاء السماسرة ويبدو أنهم كانوا يتناولون نسبة مئوية من مجموع الرسوم كما كانوا يأخذون جعلا من الصناع والتجار نظير إشرافهم . ويخيل إلينا كذلك أنه كانت عليهم مهمة أخرى هى التأكد من جودة القماش والعمل على ضبط القياس ومنع الغش أو التلاعب فيه .

توطن الصناعة :

أشرنا من قبل الى الأماكن التى اختصت بصناعة النسيج فى العصر الفاطمى ولاحظنا أن صناعة الأنواع التيلية الممتازة قد اختص بها شمال الدلتا ولعل هذا راجع الى عامل طبيعي هو رطوبة الجو الأمر الذى يساعد على متانة خيوط الغزل الدقيقة وتماسكها فى عملية النسج .

إلا أن هناك أسبابا أخرى . فالمشاهد أن الاسكندرية وغيرها من الأماكن الساحلية تمتعت بسمعتها الصناعية من أقدم الأزمنة ولما كان جانب من انتاج البلاد يصدر الى الخارج كان من المعقول أن تتركز هذه الصناعة على مقربة من الساحل الشمالى حيث يسهل النقل الى جنوب أوربا والقسطنطينية وسواحل آسيا الغربية . أضف الى هذا أن الاسكندرية كانت فى العصر الفاطمى ترتبط بداخل البلاد بقناة عرفت فى العصور الوسطى باسم خليج الاسكندرية (٢) . وكذلك اتصلت دمياط بالداخل بواسطة فرع النيل الشرقى ومنه كانت تخرج فرقة تصب فى بحيرة المنزلة حيث جزيرة تنيس الصغيرة .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣١٣ وفيما يلى نص عبارته « وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطى أن ينسج شيئا منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ولا أن تباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليها وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ثم تحمل إلى من يطويها ثم الى من يشدها بالقش ثم الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه ثم على باب الفرضة يؤخذ شىء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها »

(٢) أنظر ما كتبناه فى هذا الموضوع

ولكن هناك ظاهرة قد تفسر اشتهار أماكن معينة كدمياط وتنيس وشطا ودبيق وأسيوط واخميم بصناعة النسيج . فالمقريزى ومن سبقه أمثال ياقوت والادريسى وناصر خسرو والمقدسى وابن حوقل اشاروا فى معرض كلامهم الى أن أغلب المشتغلين بهذه الصناعة كانوا من الأقباط وأن أغلب سكان تلك المدن وغيرها مما يماثلها كانوا من هذا العنصر وهذا الأمر المتعلق بأهمية الأقباط فى الصناعة ينطبق على كثير من الحرف والمهن (١) . فالأستاذ فييت حين يتكلم عن زخارف العصر الفاطمى المكونة من أشكال الحيوان والانسان يقول إن فى اخشاب الكنائس الفاطمية زخارف تشبه فى أسلوبها الفنى الزخارف التى تراها فى المبانى الاسلامية التى ترجع إلى العصر نفسه . ولما كان الكاتب المذكور يستبعد أن يشتغل المسلمون فى زخرفة كنائس النصارى فهو يستنتج أن زخرفة مبانى المسلمين إنما قام بها الفنانون والصناع الأقباط . وما كان يسعهم أن يرفضوا هذا العمل بل إن مهنة الطب نفسها فى البلاط الفاطمى كانت أشبه باحتكار فى أيدى الأطباء من أهل الذمة كما يتضح من مراجعة الأسماء الكثيرة التى أوردها القفطى فى كتابه «أخبار الحكماء» وابن أبي أصيبعة فى مؤلفه « عيون الأنباء فى أخبار الأطباء » .

فهل نستطيع أن نجد صلة بين صناعة النسج وديانة الصناع ، وبعبارة أخرى ألا يمكن أن نلاحظ بسهولة أن المراكز التى اشتهرت بهذه الصناعة هى نفسها التى كان أغلب أهلها أو فريق كبير منهم على الأقل من أتباع هذه الديانة . ومما نلاحظه فى هذا الصدد كذلك أن دراسة كتب الاحصاء الفترية والسنوية التى تصدرها الحكومة المصرية الآن تظهر بجلاء أن هذا الظاهرة لا زالت مشاهدة فأسيوط وأخميم مثلا من المراكز الصناعية الحالية وخاصة فى النسج وما زال عدد كبير من أهلهما من الأقباط وكثير منهم يشتغل بالصناعة .

ومن المؤكد أن ما ذكرناه بشأن الأقباط ليس هو العامل الوحيد ولكنه قد يساعد على تفسير وجود صناعة النسج فى أماكن معينة إذا ما أضيف إلى غيره من العوامل .

---

(١) ذكر أبو صالح الارمنى عن منية الأمراء أنها اشتهرت بما كان يصنع فيها من الخز بكثرة وأغلب سكانها من الاقباط (أنظر Churches and Monastries of Egypt p. 115.

الأسعار والأجور :

لا يسعنا أن نختم الحديث عن صناعة النسيج دون أن نعرض للأسعار التى كانت تباع بها المنسوجات والأجور التى كان الصناع يتناولونها فى ذلك العصر .

أما الأسعار فكانت تتفاوت حسب نوع النسيج فالأقمشة الفاخرة الممتازة كانت تباع بأسعار عالية كما يتضح من البيان التالى .

الثوب الذى يقال له البدنة يبلغ ثمنه ١٠٠٠ دينار (١)

العمامة الشرب المذهبة « ثمنها ٥٠٠ « (٢)

شقة ديبقى حريرى يبلغ ثمنها ١٠ دنانير

« غلالة ديبقى « « ٨ «

ملاءة ديبقى « « ٢٤ دينارا (٣)

وفى أيام الشدة العظمى بيعت مرتبة خسروانى حمراء بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ومرتبة قلموني بيعت بألفين وأربعمائة دينار وثلاثون سندسية بيعت كل واحدة منها بثلاثين دينارا (٤) مع العلم أن هذه الأثمان التى بيعت بها تلك السلع أقل من ثمنها الأصلى بكثير .

ولا ريب أن الأسعار التى أوردناها عالية وذلك لأنها من أجود أنواع الكتان والحرير وتدخل فى صناعتها خيوط الذهب . كما أن هذه الأنواع إما لاستعمال الخليفة وإما لتوزع على رجال الدولة . زد على هذا أنها من النسيج الذى تطلبت صناعته أكبر قدر من المهارة والدقة من الوجهة الفنية .

وقد أورد جروهمان بعض الأسعار عن فترة سابقة للعصر الفاطمى إلا أنه لا داعى إلى الظن أن مستوى الأسعار قد زاد كثيرا فى العصر الفاطمى .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٧٧

(٢) شرحه جـ ١ ص ٢٢٦ وطول العمامة مائة ذراع وهذا الثمن خارج عنه الحرير والغزل

(٣) شرحه جـ ١ ص ٤١٠

(٤) شرحه جـ ١ ص ٤١٦

ثمن منديلين	٤ دينار و ١٠ دوانق
جبة من الكتان	٨ دنانير ونصف
خرقة صوف	دينار ونصف
مفرش	ديناران
رداء بغدادي	ثلاثة دنانير ونصف
عمامة خز كحلى	دينار إلا قيراط
جبة خز خضراء	أربعة دنانير ونصف (١)

ولعل هذه الأنواع مما استعملها أفراد الطبقة الوسطى .

وإلى جانب ماسبق نجد أسعارا منخفضة فقد جاء فى ورقة بردى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجرى ما يأتى :

« حزمه من الملابس ١٥ ثوبا ثمنها ١٦ دينارا » (٢) أى أن ثمن الثوب الواحد لايزيد عن دينار إلا قليلا . ومن ورقة بردى أخرى نعلم أن ثمن الحزمة من عشرة أثواب كان اثنى عشر دينارا وسدس دينار (٣) .

ويمكن أن نكون فكرة عن أجور بعض المشتغلين بعملية الخياطة من البيان التالى : —

« بطانة صفراء بالحشيش (٤)

وفرد بطانة حمراء بالبقم (٥)

وجبة خز حمراء صغار

وقميص وسراويل معصفر (٦) بدرهمين

---

(١) Arabic Papyri (Economic Texts) ms vol. VI, p. 89-91

(٢) A. Grohman; Arabic Papyri (Economic Texts) ms. (vol. VI, pp. 81—82.

(٣) Ibid p. 86.

(٤) فسر جروهمان بطانة بأنها قميص أو من الملابس الداخلية (شرحه)

(٥) ملونة باللون الأحمر المتخذ من شجر ينمو فى جزر الهند الشرقية ويدعى خشب البرازيل

(٦) أى ملونة باللون الأصفر

وأيضا جبة عنابية وبطانتها صفراء

وهذا حساب خالد ٣ (١) »

وفى البيان الذى أشرنا إليه برقم (٢) نجد أن ثمن هذه الأثواب على الاجر ١٣٢/٣ دينار أى أن الأجر وحده ١/٣ دينار (٢) . ونستدل من ورقة بردى أخرى على أن أجرة عمل الثوب كانت ١/٨ دينار (٣) وأجرة خياطة غلالة المرأة أربعة دراهم وربع (٤) . وقد يبدو لأول وهلة أن الأجور التى ذكرناها كانت شديدة الانخفاض إلا أن جروهمان يذكر أوراقا بردية أخرى تثبت أن أجرة عمل ثوب المرأة كانت قيراطا (٥) كما كانت أجرة العامل الزراعى اليومية لا تزيد عن سدس الدانق (٦) .

---

(١) A.Grohman, Arabic papyri (Economic Texts) ms Vol. VI, pp. 84—86.

(٢) Ibid, p. 86.

(٣) Idid, b.86

(٤) (Footnote)

(٥) Ibid, p. 86.

(٦) Ibid, p, 71. (Footote)

ونعتقد أن هذه الأجور التى تناولها هؤلاء الصناع مناسبة للعصر الذى عاشوا فيه ولأسعار المواد الغذائية بنوع خاص ، ومن الخطأ تقدير هذه الأرقام بالعملة التى نتداولها اليوم لما هنالك من فرق كبير بين القوة الشرائية للذهب والفضة فى العصور الوسطى بالقياس الى ما هى عليه اليوم وفى هذا كتب Le Strange فى كتابه « Palestine under the Moslems », p. 44. ما ترجمته « إن قيمة الذهب والفضة قد انخفضت كثيرا منذ كشف العالم الجديد فى القرن الخامس عشر فقبل تلك الفترة كانت الأوقية من الذهب تشترى من الغذاء والعمل ما تشتريه ثلاث أوقيات الآن . إن الدينار وإن كان يساوى عشر شلنات تقريبا إلا أن قيمته الشرائية فى تلك العصور تعادل ثلاثة أمثال القيمة المذكورة أى ثلاثين شلنا . وينبغى عمل النسبة نفسها بشأن الفضة كما يجب تعديلها بسبب الانخفاض العظيم الذى طرأ على أسعار الفضة فى الأزمنة الحديثة ففى أيام المقدسى كانت أوقية الذهب تشترى ما يقرب من اثنى عشر أوقية من الفضة بينما اليوم تحصل على اثنتين وعشرين ونصف أوقية من الفضة مقابل أوقية واحدة من الذهب » . ويلاحظ أن لوسترنج ألف كتابه فى أواخر القرن التاسع عشر ومنذ ذلك الحين هبطت أسعار الفضة .

(ب) بنـــاء السفن

لعل أثر الظروف الجديدة لم يبد قويا واضحا فى صناعة مصر بقدر ماظهر فى صناعة بناء السفن فلأول مرة فى تاريخ مصر الاسلامية يتغيروضع البلاد السياسى وتصبح القاهرة عاصمةامبراطورية تشمل شمالىإفريقية وبلاد الشام والحجاز وجزيرة صقلية فضلا عن مصر نفسها . إزاء هذا صار من الضرورى أن يكون للبلادأسطول قوى يذود عن سواحلها خاصة وقد أخذ البيزنطيون فى تهديد بلاد الشام واستولوا على بعض مدنها الكبرى مثل أنطاكية وحلب .

وقد ذكر ابن أبى طى أن المعز لدين الله أنشأ دارالصناعة بالمقس وبنى فيها ستمائة مركب ، ولكن المسبحى ينسب فضل إنشاء دار الصناعة هذه إلى الخليفة العزيز بالله (١) أما الرقم الذى ذكره ابن أبى طى فعليه مسحة المبالغة الشديدة كما أننارجح أيضا رواية المسبحى لأنه معاصر ولذا فهى أقرب إلىالصدق والدقة . ومما يجعلنا نميل إلى الأخذ بها أن الحالة السياسية بين مصروالدولة البيزنطية كانت قدتوترت واستعد العزيز للخروج إلى الشام وأشرف عيسى بن نسطوروس على انشاء الأسطول . وقد اقترن بناء هذا الأسطول بحادث ذلك أنه فى أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٣٨٦ هـ شبت نار أحرقت خمس عشاريات وأتت علي العدة والسلاح ولم يبق سوى ستة مراكب فاتهم العامة الروم المقيمين فى الفسطاط بتدبير الحريق وهاجموهم ونهبوا دورهم وقتلوا منهم نحو مائة رجل (٢)

وقد تابع خلفاء المعز والعزيز العناية بالأسطول وكانت أهم مراكز انشاء السفن مصر واسكندرية ودمياط . وحتى فى أواخر الدولة الفاطمية حين ضاعت الشـام واضطربت أحوال البلاد المالية كان الأسطول مكونا من نحو ثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمالات وكانت جريدة قواده أيضا تزيد على خمسة آلاف منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد ويصل راتب الواحد إلى عشرين دينارا ثم إلى خمسة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٥

(٢) شرحه

عشر دينارا وهكذا إلى دينارين وكان لهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة ومنها إيراد النطرون (١) .

وكانت هناك رسوم وتقاليد عند اقلاع الأسطول للغزو فكانوا إذا تم الاستعداد ركب الخليفة والوزير إلى منظرة المقس فاذا ما وصلت المراكب من صناعة مصر قامت ببعض المناورات بعدهايتقدم المقدم والرئيس إلى حضرة الخليفة حيث يوصيهما ويدعو لهما بالنصر والسلام ويعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينارا . وبعد انتهاء هذا الاحتفال تنحدر السفن فى فرع النيل الشرقى إلى دمياط ومنها تخرج إلى البحر (٢) .

الا أن هذا الأسطول أمر باحراقه الوزير شاور لما استولى الصليبيون على بلبيس واستعدوا للزحف علي الفسطاط (٣) وهكذا قضى وزير فاطمى علي الأسطول الذى بدأ إنشاؤه على يد خليفة فاطمى .

ولم يقتصر الأمر على الأسطول الحربى بل نشطت صناعة المراكب لأغراض النقل والتجارة نتيجة للتوسع التجارى الذى شاهدته البلاد فى هذا العهد فكانت السفن تقلع إلى موانى شمالى إفريقية وجنوب أوربا وجزيرة صقلية والشام وتعود محملة بالسلع اللازمة كما كانت السفن تملأ سطح النيل محملة بالغلال إلى الفسطاط والمتاجر الشرقية من أسوان وقوص بعد وصول القوافل وهكذا . وقد دهش ناصرخسرو من آلاف السفن التى رآها فى تنيس وساحل مصر (٤) .

أما الأخشاب اللازمة لبناء السفن فكان بعضها يؤتى به من مناطق الغابات المغروسة فى كثير من جهات الوجه القبلى ومن البساتين الكثيرة فى ظاهر الفسطاط والقاهرة وفى قليوب . وقد شرحنا كيف كانت أجود أنواع الأخشاب احتكارا للفاطميين برسم الأسطول والمراكب الديوانية . إلا أن إنتاج البلاد من الخشب لم

---

(١) المقريزى جـ ٢ ص١٩٣

(٢) شرحه جـ ١ ص ٤٨٠

(٣) شرحه جـ ٢ ص ١٩٤

(٤) Sefer Nemeh, p. 153.

يكن كافيا كما كانت بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة اللازمة ولهذا السبب كانوا يستوردون الخشب من أوربا على أيدى البنادقة مما جعل القطر تحت رحمتهم، وكثيراً ماتدخل الأباطرة والبيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما يلزمها من هذه المادة (١)، ومن المؤكد أن مثل هذا الخطر كان يهدد صناعة السفن الحربية باعظم الأخطار . وقد حدثت أزمة من هذا القبيل إذ لم يجد عيسى بن نسطوروس المقادير اللازمة لعمل الأسطول الذى كان مزمعا إرساله إلى بلاد الشام ولذا أصدرت الحكومة الأوامر بقطع الأخشاب في مختلف جهات القطر (٢) .

وبطبيعة الحال كان إنشاء المراكب الحربية من اختصاص ديوان العمائر وفى الوقت نفسه كانت الحكومة تبنى كثيرا من المراكب التجارية وتبيعها ومن هذه المراكب اللوحة التى قال ابن مماتي إنها كانت جارية فى ملك الديوان (٣) . وكانت هناك أيضا مراكب أطلق عليها أرباع الكيل تعمر من الحراج فاذا وصلت إلى ساحل مصر قومت أو نودى عليها فمهما بلغت من الثمن طولب صاحبها بحق الربع ضريبة (٤) أى أن الحكومة الفاطمية كانت تستغل صناعة السفن باحتكار الأخشاب أو بناء السفن لحسابها وبيعها أو فرض الضرائب الكبيرة عليها .

---

(١) راجع ماكتبناه عن الغابات وتجارة مصر الخارجية

(٢) يحي بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٧٨ — ١٧٩

(٣) قوانين الدواوين (مخطوط) ص ١٦٢

(٤) شرحه ص ١٦٢

(ج) العمارة

كان العصر الفاطمى عاملا كبير الأهمية فى نشاط العمارة الذى تجلى فى العدد الكبير من المبانى التى أنشأها الخلفاء والوزراء ، وفى تعدد أنواعها من مساجد وجوامع وقصور ومناظر ومشاهد وغيرها ، وفيما استحدثه المهندسون من أساليب جديدة لبعضها طابع أجنبى . وإذا كان إنشاء المساجد والجوامع فى أيام الفاطميين لايعادل نظيره فى العصر المملوكى إلا أن هؤلاء الخلفاء كانوا من كبار البنائين إذا قيسوا بمن سبقهم من حكام مصر الإسلامية .

ويرجع نشاط العمارة فى عهدهم إلى عوامل مختلفة . فقد استهلوا عهدهم بانشاء القاهرة واتخاذها عاصمة وعملوا على تزيينها بالمبانى الرائعة حتى تكون منافسا لكل من بغداد وقرطبة وساعدهم على الإكثار من البناء توافر المال فى أيديهم بسبب استتباب الأمن مما ساعد على تقدم الزراعة واتساع نطاق التجارة . أضف إلى هذا أنهم كانوا يشجعون المهندسين من أهل الذمة ويستقدمون إذا لزم الأمر غيرهم من البلدان الأخرى .

ولما قدم جوهر وضع أساس القاهرة وقصد باختطاطها أن تكون حصنا فيما بين القرامطة ومدينة مصر ليقاتلهم من دونها(١) وبنى سور الحاضرة الجديدة للبلاد من اللبن وكانت اللبنة الواحدة قدر ذراع فى ثلثى ذراع وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان (٢). وأخذت عمارة القاهرة تزداد إذ أصبحت مقر سكنى الخليفة ورجال القصر وأخذ الناس ينتقلون اليها حتى أربت على الفسطاط فبهجتها وروائها (٣) . ولما ولى بدر الجمالى الوزارة عمل على زيادة عمارة القاهرة بأباح للناس من الملحية والعسكرية والأرمن وكل من استطاع عمارة أن يعمر ما شاء.

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦١

(٢) شرحه جـ ١ ص ٣٧٧

(٣) على بك بهجت ، مسيو البير جبريل : حفريات الفسطاط ص ١٣.

فيها مما خلا من الفسطاط. ومات أهله فأخذ الناس ما كان هناك من انقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنازل فى القاهرة (١) . وفى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله أمر الوزير المأمون البطائحى فنودى فى الناس مدة ثلاثة أيام بأن من كان له دار فى الخراب فليعمره ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه فكانت النتيجة أن عمر الناس ما كان من ذلك مما يلي القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة(٢) ولكن يظهر أن الجانب الذي اهتم وزراء الفواطم بتعميره إنما هو الخطط المجاورة للقاهرة(٣ . وقد بنى بدر الجمالى سورا آخر للقاهرة فى عام ٤٨٠ هـ (٤) وبه بوابات جديدة منها باب زويلة الذى أنشأه عام ٤٨٥ هـ وعلى أبراجه ولم يعمل له باشورة كما هى عادة أبواب الحصون لكنه عمل فى بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوان عظيمة بحيث إذا هجم عسكر على القاهرة لاتثبت قوائم الخيل على الصوان (٥)

وقد أثبت Van Berchem أن الأبواب الجديدة تمثل مبادىء العمارة الحربية تلك المدرسة الفنية التى تجد آثارا تدل عليها فى القسطنطينية ونيقية وبروسه واضاليا(٦) وهذا الطراز أدخله في مصر لأول مرة المهندسون الذين أتى بهم بدر الجمالى من الرها .

وأنشأ الفاطميون عددا من الجوامع والمساجد كالأزهر والمقس وراشدة والأقمر وموسى وطلائع بن رزيك . ورمموا وأدخلوا التحسينات فى الجوامع القديمة كابن طولون والجامع العتيق . ولكل من الجوامع الجديدة مميزاته وأهميته فى فن العمارات الإسلامية فى الديار المصرية .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦٤
(٢) شرحه جـ ١ ص ٣٠٥
(٣) على بك بهجت ومسيو البير جبربيل : حفريات الفسطاط ص ١٥
(٤) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٣٧٩
(٥) شرحه جـ ١ ص ٣٨٠
(٦) Stanley Lane-Poole. The Story of Cairo, p. 153.

وقد استحدث فى الجامع الأزهر نوع من الأقواس المدببة على شكل حدوة الفرس وترتكز علي قواعد مرتفعة (١). وكان جامع الحاكم الذى بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله وأتمه ابنه من بعده أول جامع فى القاهرة استخدمت فيه الحجارة (٢) ويجعل فيبت استعمال الحجارة فى إنشاء الجوامع من مستحدثات الفاطميين ومميزات العمارة فى عصرهم (٣) وقد أدخله مهندس هذا الجامع وهو أقدم مثال لهذا الطراز فى العالم الإسلامى (٤) . أما الجامع الأقمر فإنه يدعو إلى الاهتمام لأنه مثال أول للنوع الجديد الذي يحتوى علي المآذن الرفيعة الاسطوانية . والواقع أن المهندسين أخذوا يتأثرون بتصميم مأذنة جامع الحاكم وبدأوا فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يتحررون تدريجا من الشكل المربع التقليدى للمآذن (٥) . وإن كان من الصعب معرفة المهندس الذى وضع تصميم هذا الجامع الصغير نسبيا إلا أن مظهره الكنائسى وطريقة تزيين الاقواس فى الواجهة والتى تمت بصلة إلى بابى النصر وزويلة مما يرجح احتمال كون هذا المهندس من مسيحى أرمينيا ولذا أتى بهذا النوع من الزخرفة من بلاد أرمينية . (٦)

وقد أدخل الفاطميون فى مصر اسلوب إنشاء المشاهد فوق مقابر البارزين

---

(١) Rivoira Moslem Architecture, p. 154.
ويقول المؤلف إننا لا نعرف اسم مهندس الجامع الأزهر ولما كان جامع القيروان من أيام زيادة الله الأول يحتوى على أقواس مستديرة لها شكل حدوة الفرس وترتكز على هذه القواعد فمن المحتمل أن الطراز الذى فى الجامع نشأ عن الرغبة فى ربط القوس المدبب الذى أتى به أحمد بن طولون بالقواعد المرتفعة التى فى جامع القيروان ويبدو طبعيا أن جوهر الصقلى هو الذى أوحى بالفكرة للمهندس المسيحى الذى أراد تعديل طراز جامع ابن طولون حتى يبرز مظهرا ينم عن العهد الجديد) شرحه ص ١٥٧.

(٢) Briggs; Architecture (Ch. VI in «Legacy of Islam»), p.170.

(٣) Wiet: Precis de l' Histoire de l' Egypte, p. 208.
وقد عقب المؤلف على هذه العبارة بقوله (ولو أن استعمال الحجارة قبل هذا لم يكن غير معروف)

(٤) Rivoira: Moslem Architecture, p, 164.

(٥) Ibid, p. 178.

(٦) Ibid p. 177.

من أفراد البيت العلوى ممن دفنوا بالديار المصرية وهذا النوع من المبانى يدخل لأول مرة(١)ومن أمثلته مدفن الجيوشي والمشهد الحسينى ومشهد السيدة رقية .

ومن الجهات التى تقدمت عمارتها فى العصر الفاطمى القرافة فأنشأ الخلفاء وأهل بيتهم والوزراء والأعيان بها المساجد الكثيرة مثل مسجد شقيق الملك وكان شقيق الملك هذا صاحب بيت المال فى عهد الخليفة الحافظ وعمل مؤسسة فيه ضيافة عظيمة حضرها الخليفة بنفسه ومعه الأمراء والاستاذون وكافة الرؤساء وكان لمساجد القرافة عند هذا الخليفة روزنامج بأسماء أربابها فينفذ اليهم الفاكهة واللحم والحلوى(٢) .

وكان بالقرافة مبان تعرف بالجواسق وكان يقال لها القصور وقد كثر عددها فى عصر الفاطميين وكان منها ما تحته حوض ماء لشرب الدواب وفسقية وبستان (٣) كما كان بالقرافة الكبرى عدة دور يقال لها الرباطات أعدت للعجائز والأرامل العابدات وكانت لها الجرايات والفتوحات وأغلب هذه الرباطات من بناء الفاطميين(٤). وقد وصف ابن سعيد القرافة وصفا شيقا فقال « وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط وهى فى شرقيها بها منازل الاعيان بالفسطاط والقاهرة وقبور عليها مبان معتنى بها وترب كثيرة عليها أوقاف للقراء . . ، ولا تكاد تخلو من طرب ولا سيما فى الليالى المقمرة وهى معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم وفيها أقول :

إن القرافة قد حوت ضدين من دنيا وأخرى فهى نعم المنزل
يغشى الخليع بها السماع مواصلا ويطوف حول قبورها المتقبل

---

(١) Hautecoeur & Wiet: Les Mosquées du Caire, Tome I, p. 99.

ويقول المؤلفان (ص ١٠٠) « من الحذر الا نترجم هذه الكلمة على أساس أنها تعنى مكان الاستشهاد لأن هذا يجعل معنى تحمل الآلام بينما المقصود من هذه الكلمة الشخص الذى لم يتمكن من قول الشهادة عند الموت إما فى ميدان القتال أو ما يشابهه ولهذا فالمعنى الصحيح لها هو مدفن »

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٤٥

(٣) شرحه ج ٢ ص ٤٥٢ — ٤٥٣

(٤) شرحه ج ٢٤ ص ٤٥٤

كم ليلة بتنا بها ونديمنا لحن يكاد يذوب منه الجندل
والبدر قد ملأ البسيطة نوره فكأنما قد فاض منه جدول(١)

وكانت العاطفة الدينية والرغبة فى التقرب الى الله بالأعمال الصالحة الخيرية من الأسباب القوية التى دفعت الناس الى الاكثار من انشاء تلك المبانى ذات الطابع الدينى والخيرى . ولكن كانت هناك مبان أخرى انشئت لأغراض مختلفة ، فقد استلزم النشاط التجارى وكثرة ورود التجار من الاقطار الاجنبية انشاء القياسر على ايدى الامراء وغيرهم كما أقيمت الخانات فى القاهرة والفسطاط وبالغ ناصر خسرو فجعل ايجار الواحد منها اثنى عشر ألف دينار فى السنة (٢) أما الحوانيت فقد أعطانا عن ايجارها أرقاما كثيرة (٣) .

وزاد عدد الحمامات اذ هى من مستلزمات الحياة الاجتماعية في ذلك العصر وقد وصفها عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر بعد الفاطميين بقليل فقال إنها كانت متقنة الوضع يسع الحوض الواحد مابين راويتين الى أربعة أو أكثر وفى داخل الحمام مقاصير بأبواب وفي المسلخ أيضا مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطو بالعوام (٤) وبذا كانت فكرة الطبقات الممتازة وغير الممتازة قوية فى ذلك العهد .

وكان للخلفاء الفاطميين قصورهم ومناظرهم ودورهم فأنشأوا منها الكثير مثل قصور الذهب والاقبال والظفر والشوك والزمرد وكلها قاعات ومناظر . أما عن دورهم فنذكر دار الضيافة ودار الوزارة ودار الضرب ومناظر اللؤلؤة والغزالة والمقس وقبة الهواء ودار الملك بمدينة مصر ومنازل العز بها وغير ذلك العدد الوفير(٥) .

---

(١) شرحه جـ ٢ ص ٤٤٤

(٢) Sefer Nemeh, p. 127.
لم تكن هذه المبانى وهى القياسر والخانات والوكالات تبنى للتجار كعمل من أعمال الخير بل لأن ايرادها كان يوقفه أربابها فى كثير من الأحيان على أعمال البر راجع (Hautecoeur et Wiet: Les Mosquées du Caire, Tome I, p. 108.

(٣) Sefer Nemeh, p. 127.

(٤) أخبار مصر ص ١٦٦ — ١٦٨

(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨٤

ولا شك أن هذه المبانى على مختلف أنواعها مما أقامه الخلفاء والوزراء والأعيان والتجار وغيرهم دليل على تحسن الحالة الاقتصادية وتوافر المال في أيدى الكثيرين عن طريق الصناعة والتجارة .

وكان على المبانى الفاطمية كتابات من النوع الذى شاهدناه على قطع النسيج وهى الصيغة التى اختصت بها هذه الدولة الشيعية فمثلا نقش على قطعة وجدت فى الجامع الأزهر العبارة التالية «مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الامام المعز لدين الله(١) . وأخيرا لا يفوتنا أن نذكر أن قيام الدولة الفاطمية كان من أسباب سيادة الخط الكوفى المزهر (fleuri) كما أن هذا الخط انتهى بسقوط الدولة ليحل محله الخط النسخ فى العهد الأيوبي (٢) .

---

(١) Corpus Inscriptorum Arabicarum. Première Partie, Tome I, p. 43.

(٢) Ibid Tome I, p. 26. والنص رقم ٤٦ فى هذا الكتاب ص ٧٤ — ٧٥ وهو من جامع طلائع بن رزيك له أهميته إذ هو آخر كتابة فى هذا العصر بالخط الكوفى المزهر .

(د) الورق والتجليد

كان من أثر استعمال الورق فى الكتابة أن انحط شأن صناعة البردى حتى انقطعت حوالى عام ٦٥٠ م (١) وأخذت صناعة الورق تتقدم باطراد منذ أواخر القرن الرابع وساعدت سياسة الفاطميين على ذلك . فقد دأبوا على جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من الكتب خاصة النادر منها حتى لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هذه المؤلفات النفسية (٢) واجتهدوا أن تضم مكاتب القصر عددا كبيرا من النسخ من السفر الواحد . وكانت خزانة الكتب الفاطمية مفخرة هذا العصر وأكبر دليل على ارتقاء الآداب والعلوم (٣) وكان الخليفة يتوجه اليها من وقت لآخر ويستقبل متوليها الذى يعرض عليه نسخا مختلفة من الصحف وما يقترح اضافته الى المكتبة من المؤلفات (٤) . وقد اختلف الكتاب فى تقدير عدد ما كانت تضمه هذه المكتبة من المجلدات فقال ابو المحاسن إنها بلغت مائة ألف (٥) فى سائر العلوم . وذكر ابو شامه فى معرض كلامه عما بيع من خزائن القصور بعد وفاة الخليفة العاضد ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وتحتوى على ألفى ألف كتاب (٦) . ويميل الدكتور حسن ابراهيم حسن الى ترجيح رواية ابن الطوير الذى قدر عدد الكتب بستمائة ألف (٧) . وبرغم اختلاف التقديرات السالفة الذكر فما لا نزاع فيه أن مكتبة الفاطميين كانت مليئة بصنوف المؤلفات . واذا كان جانب كبير من محتوياتها مما حصل عليه الخلفاء من البلدان الأخرى على أيدى دلالى الكتب

---

(١) Arnold and Grohamm: The Islamic Book, p. 32-

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٣٦

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٧

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠١

(٦) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩٩

(٧) الفاطميون فى مصر ص ١٤١

أو سماسرتها فلا مراء أن عدداً وافرا منها كان ينسخ فى مصر وأن الخلفاء كانوا يستأجرون النساخين ويزودونهم بالورق والحبر وغير ذلك من الأدوات اللازمة .

وازدهرت الحركة العلمية بقصد العمل على نشر الدعاية الشيعية وافتتح الحاكم دار الحكمة فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٦٥ هـ وحملت اليها الكتب من خزائن القصر ودخل الناس الى هذه الدار وأبيح لهم قراءة الكتب ونسخ ما أرادوا وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر وعين رواتب مالية ثابتة لورق الناسخ وخلاف ذلك من الأدوات (١) .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء بل تعداهم الى الوزراء وغيرهم فقد جعل ابن كلس فى داره خزانة للدفاتر لها ناظر يشرف عليها ورتب الكتاب والأطباء والعلماء والشعراء وغيرهم وألف بنفسه فى القراآت والفقه والعلم، وكان فى داره عدة كتاب ينسخون القرآن الكريم وكتب الفقه والطب والعلوم الأخرى (٢) وكان الرؤساء والفضلاء ووجوه القوم يسعون الى سماسرة الكتب (٣) على الدوام .

هذه الروح العلمية وهذا التشجيع كانا كفيلين بالعمل على انتشار القراءة وازدياد عدد الكتب ولا شك أن هذا يرتبط أشد الارتباط باتساع نطاق صناعة الورق (٤) وقد أشار الكتاب اليها مرارا فقال أبو صالح الأرمنى إن بمصر صناعة الورق الأبيض، كما ذكر ابن سعيد — زائر مصر بعد سقوط الفاطميين بقليل — الوراقات وقال إن الفسطاط اختصت بالمطابخ التى كان يصنع فيها الورق المنصورى. ولم يكن الورق يباع بسعر واحد بل اختلفت أسعاره حسب صنعته ونوعه فقد يكون ورقا زائداً فى البياض وفى الصقال ويكون مما عمل فى الصيف وآخر عكسه فيه سمرة ونقص فى الصقال أو البياض وعمل في الشتاء وما بين ذلك(٥) . وكان هذا

---

(١) المقريزى الخطط ج ١ ص٨٥٤ — ٩٥٤

(٢) شرحه ج ٢ ص ٦

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠

(٤) Churches and Monasteries of Egypt, 65

(٥) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١٠٨

(٦) ابن الحاج : المدخل ص ٨٩

الاختلاف راجعا على ما نرى إلى المادة المستعملة ، كأن الفرق بين ماصنع فى الصيف أو الشتاء إنما كان سببه بساطة الآلات التى استخدمها الصناع فى المطابخ (١) . ولا شك أن عبارة ابن الحاج التى اقتبسناها تمثل فى الحقيقة نفس الحالة فى العصر الفاطمى. أما المادة التى استعملت فى عمل الورق فيدل تحليل الخرق التي صنع منها الورق أيام الفاطميين على أنها من الكتان المضروب بالقطن (٢) ويبدو من عبارة ابن سعيد أن الفسطاط كانت أعظم مراكز هذه الصناعة .

وقد راج عمل الوراقين تبعا للنشاط العلمى وتشجيع الخلفاء والوزراء والأعيان، وكان الوراقون فى العادة يشتغلون بعمل الورق وتجارته والنسخ والتجليد وبيع الأقلام والحبر (٣) وكان لهم أماكنهم فى الأسواق أسوة بغيرهم من أصحاب المهن وأرباب المتاجر كما كانت محالهم ملتقى الطبقات المثقفة كما تدل على ذلك عبارة ابن خلكان عن ابن صورة الذى كان سمسارا في الكتب ويجلس فى دهليز داره لذلك ويجتمع عنده فى يومى الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب ولا يزالون مجتمعين عنده إلى انقضاء وقت السوق (٤)

وصحب انتشار صناعة الورق تقدم فن التجليد الذى أبدى فيه الصناع مهارة كبيرة وروحا فنية عالية إذ به « تصان المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية »(٥) . وكانت عملية التجليد تشتمل الجلد والبطانة والحرير كما استخدم الورق فى عمل البطانة (٦) وذلك بعد أن حل هذا مكان البردى فى الكتابة (٧). واستعمل الصناع جلود العجول واستخدموا الحرير والديباج والأطلس فى تجليد

---

(١) هذا ما ذكره ابن سعيد عن أماكن صناعة الورق (المقريزى : الخطط ج١ ص٣٠٧)

(٢) Lamm: Cotton in Medieval Textiles, p. 5.

(٣) Arnold and Grohman : The Islamic Book, p. 32.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ وابن صورة هذا هو أبو الفتوح ناصر بن أبى الحسن على بن خلف الأنصارى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ

(٥) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٨٧

(٦) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٨٩

(٧) Arnold and Grohman: The Islamic Book, p. 51.

المصاحف بصفة خاصة يدل على ذلك وصف الهدية التى بعث بهـا صـلاح الدين إلى نور الدين سنة ٥٦٨ هـ اذ اشتملت على خمس ختمات احداها فى ثلاثين جزءاً مغشاة بأطلس أزرق ومضببة بصفائح ذهب وعليها أقفال من ذهب ، وأخرى فى عشرة أجزاء مغشاة بديباج فستقى وأخري فى جلد بخط ابن البواب بقفل ذهب (١).

ويرتبط بصناعة الـكتب مهنة الخطاط الذى يكتب كلام الله وكان ذا مركز ممتاز فى العالم الإسلامى ويذكره المؤلفون بالاعجاب ويعدونه من علائم ازدهار العصر، وإذا أرادوا بيان قيمة النسخة من هذه الناحية قالوا انها بخط فلان من مشاهير الخطاطين كما جاء فى الوصف الذى اقتبسناه من المقريزى بخصوص هدية صـلاح الدين إلى السلطان نور الدين .

ويلى الخطاط فى المرتبة والأهمية المذهب الذى يزخرف الصحيفة وكانوا يوجهون عناية كبرى إلى « الفاتحة » بحيث تختفى نصوصها وعباراتها فى هالة من الذهب واللون(٢) . أضف إلى هـذا أن بعض المخطوطات كان مزينا بالصور والرسومات الدقيقة وفى هذا يبدو التأثر بالصناعة الفارسية (٣) وقد عبر الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « كنوز الفاطميين ص٢٩ » عن الرقي الذى أدركته هذه الصناعة الدقيقة بقوله « وكان أكثر المخطوطات فى جلود جميلة النقوش بديعة الصناعة نسج المماليك على منوالها فى صناعة التجليد فى عصورهم وأخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرا من أساليبهم ».

---

(١) المقريزى : السلوك ، الجزء الأول من القسم الأول ص ٥٤

(٢) Arnold and Grohman: The Islamic Book, p. 97

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٨

(هـ) الأدوات الجلدية

ومما اشتهرت به مصر صناعة الكثير من الأدوات والسلع من الجلود ومن ذلك عمل السروج وقد راجت فى هذا العصر إذ أن الخليفة العزيز عمم ركوب الحمير فأقبل عليها الناس من كافة الطبقات من التجار والأعيان ووجوه القوم لايرون فى ذلك حرجا ولا انتقاصا من كرامتهم . أضف إلى هذا أن الجيش الفاطمي كان يضم عددا كبيرا من الفرسان

وكانت خزائن القصور الفاطمية مليئة بأنواع السروج المصنوعة من الجلد مع أنواع النسيج الفاخر وكانوا يحلونها بالذهب والفضة . وقد أخرج من الخزائن صناديق سروج محلاة بفضة مجزأة بسواد ممسوحة وجد على صندوق منها الثامن والتسعون والثلثمائة وعدة ما فيها زيادة على أربعة آلاف سرج كان أبو سعد إبراهيم بن سهل التسترى ادخره له فيها وتقدم بحفظها، كل سرج منها يساوي سبعة آلاف دينار إلى ألف (١). وكان لكثير من أرباب الرتب ورجال الحاشية حق استعمال هذه السروج إلا ما كان منها غالى القيمة وجعل لركاب الخليفة خاصة (٢) .

وكانوا يأتون بالجلود النادرة من الحبشة وغيرها ويصنعون منها أنواعا فاخرة من النعال والخرائط والتواسم (٣) .

وفضلا عن هذا كله كانوا يصنعون من الجلود المأخوذة من الحيوانات المحلية الروايا لحمل الماء إلى البيوت ، وكانت مهنة السقائين واسعة الانتشار حتى قدر عدد الابل لنقل الماء من النيل إلى البيوت فى الفسطاط وحدها باثنين وخمسين ألفا (٤) وكانت موضع الرقابة من الحكومة الفاطمية لارتباط ذلك بالصحة العامة.

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٨

(٢) شرحه ج ١ ص ٤١٨ ، الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٩

(٣) Nasiri Khosrou: Sefer Nemeh, p. 154.

(٤) Ibid, p. 132.

(و) الزجاج والخزف والبلور الصخرى

امتاز العصر الفاطمى بتقدم كبير فى هذه الصناعات الثلاث شمل الانتاج الوفير ودقة الصنعة وجمال الزخرفة على الأوانى والقطع المصنوعة من هذه المواد ، أضف إلى هذا تعدد الأغراض التى استخدمت فيها هذه الأشياء .

وكانت أكبر مراكز صناعة الزجاج الفسطاط حيث تكلم ابن سعيد عن مسابكه (١) فى هذه المدينة الكبيرة رغم ما أصابها فى أيام الشدة العظمي وبعد الحريق الذى أمر به الوزير شاور فى خلافة العاضد . ومن الجهات التى اشتهرت بهذه الصناعة الفيوم والاشمونين والشيخ عبادة والاسكندرية (٢) .

ولا شك أن نشاط حركة البناء فى العصر الفاطمى مما تجلى فى القصور والمناظر والمساجد والمشاهد وغيرها وعددها كبير استلزم الإكثار من مسابك الزجاج لسد حاجة هذه المبانى من المصابيح والقناديل التى كان لها سوق خاص فى الفسطاط (٣)

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٢

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ـ وقال تعقيبا على هذه الأماكن « ومع ذلك فقد عثر على بقايا تحف زجاجية فى غير هذه المراكز التى ذكرناها فكشفت بعض النماذج فى مدينة حابو وكوم بلال وقوص وابيدوس واخميم وأسيوط والمنيا والبهنسا واهناسية المدينة وهوارة واطفيح وسقارة وميت رهينة وكوم الاتريب . . . ولسنا نظن أن كل هذه النماذج ترجع الى العصر الاسلامى » ص ١٨١ . وبغض النظر عن انتماء هذه النماذج الى العصر الاسلامى أو ماقبله فان وجودها فى تلك الأماكن ليس دليلا على أن هذه الأماكن كلها اشتغلت بصناعة الزجاج بل إن اتساع نطاق التجارة كفيل أن يجعلنا نجد الكثير من القطع بعيداً عن أماكن صناعتها .

(٣) يقول الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « كنوز الفاطميين » ص ١٨١ مانصه « ولسنا نزعم أن هذا السوق كان يسمى سوق القناديل نسبة الى مصابيح كانت تصنع فيه فقد ذهب الأستاذ فييت الى أن منشأ هذه التسمية أن سكان هذا الحى كان لكل منهم قنديل معلق على باب سكنه ، ولكننا برغم ذلك نعلم أن المصنوعات الزجاجية كانت من البضائع الرائجة فى هذا السوق »

أسوة بغيرها من السلع والمصنوعات . وقد اقتضت حياة الترف والثراء الاكثار من السلع الزجاجية والخزفية والبلورية المختلفة الأشكال والأغراض وكانت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان تضم الآلاف من هذه القطع فقد شملت تركة السيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله على مائة قطر ميز (١) مملوأة كافوراً (٢). وخلف الأمير جوهر عشرة آلاف زبدية صيني وبلور وفضة (٣)، وأخرج من خزائن القصر في أيام الشدة العظمى عدة صناديق وفتح واحد منها فوجد فيه على مثال كيزان الفقاع من صافي البلور المنقوش. وقد بلغ ما تولى بيعه أبو سعيد النهاوندي في مدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور منها ما بلغ ثمنه ألف دينار إلى عشرة دنانير . ووجدوا في القصور سبعة عشر ألف غلاف خيار مبطنة بالحرير محلاة بالذهب خالية مما فيها من الأواني ، وكان في كل قطعة إما بلور مجرود أو محكم أو مايشاكله. وقد أخرج أيضا من خزائن القصور تسعون طشتا وتسعون إبريقا من صافي البلور (٤) .

وكانوا يتخذون من الزجاج بعض أنواع الأوزان كما تدل على ذلك القطع الكثيرة التي كشف عنها في حفائر الفسطاط (٥) . وقد ذكر ناصر خسرو أن التجار المسافرين إلى بلاد النوبة كانوا يحملون معهم الكثير من السلع المصنوعة من الزجاج (٦) ولا شك أنهم كانوا يأخذون معهم غير هذا من الأدوات الخزفية وما شاكلها إذ أن جمال منظرها وبريقها يجعلانها ذات قيمة في نظر النوبيين وغيرهم من شعوب داخل قارة إفريقية . أضف إلى هذا أن التجارة مع هذه الشعوب المتأخرة كانت تتم بواسطة التبادل نظرا لجهلهم استعمال النقود فكأن هذه السلع كانت تستخدم فيما تستعمل فيه النقود أي أداة للتعامل التجاري .

---

(١) القطر ميز قلة كبيرة من الزجاج

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٩٣

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٥١

(٤) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٤١٤ — ٤١٥

(٥) Casanova: Etudes sur les inscriptions Arabes des poids et des mèsures en verre.

(٦) Sefer Nemeh, p. 154.

أما الخزف ذو البريق المعدنى فكان فخر صناعة الفخار فى عصر الدولة الفاطمية(١) فصنعوا منه الأزيار الكبار والأوانى مما كان يستخدم على المائدة وفي حفظ العطور والبخور وغسل الأيدى بعد تناول الطعام كما يتضح من مراجعة أسماء الأشياء الكثيرة التى أوردها المقريزي عند كلامه على خزائن القصور الفاطمية (٢) .

ومما يدل على رسوخ قدم هذه الصناعة وانتشارها فى هذا العصر ما رواه الفارسى ناصر خسرو من أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف (٣) بدلا من الورق . وقد أبدى نفس المؤلف إعجابه الشديد بما رآه فى أسواق الفسطاط من أقداح وصحاف وسكارج (٤) تناهت فى الشفافية حتى استطاع أن يرى يديه واضحة من وراء ظهر الآنية(٥) . وقد كشفوا فى الفسطاط عن قطع من الخزف الصينى أى مما حاول فيه الصناع المصريون تقليد الخزف الذى كان يعمل فى بلاد الصين . وامتازما اخرجته الصناعة المصرية من هذا النوع بالبريق المعدنى الذى لم يكن معروفا فى الشرق الأقصى (٦) .

أما صناعة الفخار غير المدهون فهى صناعة قديمة واسعة الانتشار فكانوا يصنعون منه الازيار والقلل وأوعية الخل والعسل والنبيذ والسمن والخل وغير ذلك من الأدوات التى كانت ذات أهمية فى حياة الشعب . أما المادة المستخدمة فهى الطمى ، ولكن يبدو أن أجود الأنواع كان يصنع فى الوجه القبلى وخاصة فى الصعيد الأعلى فقد تكلم أبو صالح الأرمنى عن طين اسوان الذى أسماه طين الصناعة وقال إنهم كانوا يصنعون منه بعض أوان للمشروب المعروف باسم الفقاع (٧) .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٩

(٢) راجع : الخطط ج ١ ص ٤١٤ — ٤١٦ (خزائن الجوهر والطيب والطرائف)

(٣) Sefer Nemeh, p. 135.

(٤) مفردها سكروجة وهى الصحفة أو الطاسة أو الاناء

(٥) Sefer Nemeh, p. 151.

(٦) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٦٥

(٧) Churches and Monasteries of Egypt, p. 65.

وكان الفخاريون المصريون يعملون قوارير النفط من عجينة ثخينة وعلى أشكال مختلفة عجيبة وفى بعض أجزائها بروز ليسهل مسكها (١) وقد استخدم من هذه القوارير آلاف حينما اعتزم شاور وزير الخليفة العاضد احراق مدينة مصر حينما أيقن بعجزه عن الدفاع عنها ضد الصليبيين وفى هذا قال المقريزى « وبعث شاور الى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظرا مهولا فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما »(٢).

أما البلور الصخرى (٣) فقد استخدمه المصريون فى عمل الكؤوس والأباريق والفناجين والأطباق والقناني وغيرها من التحف الثمينة التى أفاض فى وصفها كل من تحدث عن خزائن قصور الفاطميين . ومن المحتمل أن جلب البلور الصخرى من مصر نفسها كان سببا فى انخفاض ثمنه وانتاج التحف الكثيرة منه حتى كان منها الشىء الكثير فى كنوز الفاطميين ووزرائهم ورجال دولتهم(٤). وقد وجد وافى مدينة البندقية بايطاليا ابريقا من البلور الصخرى عليه اسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، كما وجد غيره فى بلدة نورمبرج بالمانيا وقد نقش عليه اسم الخليفة الظاهر (٥) . وان الابريق الأول ليعد بدقة صنعته وجمال الرسم مثالا لهذا العصر العظيم الأهمية فى تاريخ الفن الاسلامى (٦) .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٧٣

(٢) الخطط جـ ١ ص ٣٣٩

(٣) قال ابن الاكفانى عن البلور (ومنه ما يلتقط من البوادى وقيمته بحسب ما يعمل منه من الأوانى وحسن صنعتها ووجد منه قطعة زنتها مائتا رطل بالعراق . وأفضله المستنبط من بطن الأرض ويكون ساطع البياض كثير المائية رزينا صلبا بحيث يقدح منه النار ويخدش كثيرا من الجواهر بخلاف الملتقط من ظاهر الأرض (راجع : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ص ٥٥ — ٦٦)

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٩

(٥) Wiet et Hautecoeur: Les Mosquées du Caire. Tome I, p. 91.

(٦) A. H. Christie: Islamic Minor Arts (Ch. IV in « Legacy of Islam »), p. 144.

ولعل الابريقين من الأشياء الكثيرة التى أخرجت من القصر أيام المستنصر وبيعت للتجار الأوربيين فنقلوا بعضها الى بلادهم . وهذا لا يمنع أن الاوربيين كانوا يشترون الكثير من الأوانى المصنوعة من هذه المادة ويصدرونها الى بلادهم لبيعها حيث كانت لها سمعة طيبة . وقال مؤلف كتاب الذخائر « وحدثنى من أثق به أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الساذج الغاية فى النقاء وحسن الصنعة أحدهما خردادى والأخرى باطية مكتوب على جانب كل واحدة منها اسم العزيز بالله ، تسع الباطية سبعة أرطال بالمصرى ماء والخردادى تسعة وأنه عرضها علي جلال الملك بن الحسن على بن عمار فدفع فيهما ثمانمائة دينار فامتنع عن بيعهما وكان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن » (١). وهذا مثل يدل علي مستوى صناعة البلور فى مصر ومهارة الصناع المصريين حتى رفض صاحب القطعتين أن يبيعهما بهذا المبلغ الكبير فى عصر بعيد كهذا .

وتطورت زخرفة الزجاج في العصر الفاطمى فامتازت بدقة الصنعة واتقان الرسوم ، على أن أرقى المصنوعات الزجاجية الفاطمية خاصة من الناحية الفنية انما هو الزجاج المذهب تزينه زخارف لها بريق معدنى . وفى برلين تحفة نادرة وهى محبرة يرجع تاريخها إلى القرن السادس الهجرى مصنوعة من زجاج سميك حاول فيه الصانع تقليد البلور الصخرى (٢) .

أما الأوانى الفاطمية المصنوعة من الخزف فكان طلاؤها أبيض أو أبيض يميل إلى الزرقة أو الإخضرار وتعلو الدهان رسوم ذات بريق معدنى ذهبى اللون فى الغالب .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٤

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٨٢ — ٢٠١٤

(٣) شرحه ص ١٥١

(ز) الصناعات الخشبية

امتاز العصر الفاطمي بتقدم فن النقش على الخشب ، ولما كانت الأخشاب المحلية من الجميز والسنط والنبق والسرو لا تمتاز بالمتانة والصلابة اللازمتين لهذه الصناعة كانت مصر تستورد الأخشاب الصالحة من كرواتيا ودلماشيا وكانت تحصل على خشب الأرز والصنوبر من أحراش الشام وآسيا الصغرى، والأبنوس من السودان ، والتك من بلاد الهند وشبه جزيرة الملايو . وكان المصريون يستخدمون هذه الأنواع المختلفة فى عمل السقوف والأبواب والمنابر والمحاريب غير الثابتة وربط القوائم والأعمدة ببعضها وصناعة القباب أو تدعيمها (١) وتمتاز التحف الخشبية التى ترجع إلى عصر الدولة الفاطمية بدقة الصنعة وجمال الزخرفة وخطر المناسبات التى صنعت فيها أو الأبنية التى استخدمت بها (٢) تدل على ذلك قطع الأبواب والحشوات والألواح والمحاريب وغير ذلك مما تضمه دار الآثار العربية بالقاهرة . ومن أنواع الزخرفة التى امتاز بها هذا العصر مناظر الطرب والموسيقى أو الصيد أو السفر أو القتال بينها صور لطيور وحيوانات بذل الصانع المصرى جهده فى محاكاة الطبيعة بدقة وأمانة وبساطة لم يبلغها تصوير الانسان والحيوانات إلا في أيام الفاطميين (٣)، مثال ذلك رسم أمير جالس على أريكة وفى يده اليمنى كأس وفى اليسرى زهرة وعلى رأسه عمامة ضخمة وإلى يساره الساقى يصب الخمر فى كأس وإلى يمينه تابع يقدم اليه صينية ذات غطاء . وتجد كذلك مناظر رقص يشترك فيها الرجال فضلا عن النساء ، كما نشاهد رسوم صيد وطيور جارحة وحيوانات خرافية وحيوانات وطيور مختلفة كالباز والطاووس والأرنب . وفى العصر الفاطمى الأخير نجد على بعض القطع زخارف نباتية ورسوم هندسية فيها زخارف نباتية دقيقة . (٤)

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : ا) كتاب الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٢ ـ
ب) كنوز الفاطميين ص ١٩٧

(٢) شرحه : كنوز الفاطميين ص ١٩٨

(٣) شرحه ص ٢١١ — ٢١٢

(٤) شرحه ص ٢١٢ و ٢١٣ و ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢١

أما الأخشاب المحلية المنتشرة فى كافة أرجاء البلاد وما كانوا يحصلون عليها من الغابات المغروسة فى مناطق كثيرة فكانت تستعمل لأغراض أخرى كبناء المراكب والزوارق ، أما السفن للأسطول فكان الغالب استيراد الأخشاب المتينة من بلدان أوربا الجنوبية . ومن الأشياء التى كانوا يستعملون فيها الأخشاب أثاث البيوت وعمل السواقى وغيرها من الآلات رافعة الماء . وكذلك الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وكثير من الآلات التى كانوا يستخدمونها فى الصناعة . ولا ريب أن التوسع الصناعى والتجارى وازدياد الثروة فى أيدى الكثيرين كان من أسباب تقدم صناعة الخشب بمختلف أنواعها .

(ح) صناعة المعادن والعاج والفسيفساء

لم تكن مصر من البلاد التى تنتج معدن الحديد ولكنها كانت تستورد مقادير صغيرة منه من أوربا وصقلية وشمالى افريقية . ويظهر أن الحكومة الفاطمية كانت تستولى على الوارد من هذا المعدن وتضمه إلى المتجر الذى أنشأته . وكان استعمال الحديد قاصرا على أشياء قليلة كآلات بسيطة أولية ومايلزم فى البناء وقد ذكر ناصر خسرو أنهم كانوا يصنعون فى تنيس المقصات والسكاكين (١) كما تكلم ابن سعيد على الانطاع المتحسنة التى كانت تسفر إلى الشام وغيرها ، وكان مركز صناعة هذه الأسلحة مدينة القاهرة (٢)

أما الذهب والفضة فاستخدموهما فى سك النقود الذهبية والفضية وعمل الكثير من أدوات الترف والحلي والمصوغات كالأساور والأقراط والخواتم « إلا أن شكل الحلى — التى كشف عنها — ليس مثالا للرقة وحسن الذوق ولكن زخارفها المشبكة والبارزة وذات الخروم كلها دقيقة وجميلة فضلا عن أن فيها تنوعا ينم عن قدرة الصنعة » . (٣) وكانت أدوات كثيرة من المصنوعة من الذهب تحلى بمختلف أنواع الجواهر واليواقيت والزمرد . وقد استخدموا كذلك الذهب والفضة فى تحلية السروج والسيوف والمصاحف والتذهيب وما إلى ذلك . وكانت الملابس الفاخرة يدخل فى صناعتها مقادير — تختلف حسب قيمة الثوب والشخص المصنوع له — من خيوط الذهب ، ويدل وصف المقريزى على مدى انتشار هذه الصناعة حين تكلم على طرائف الخزائن ولا شك أن كثرتها في العصر الفاطمى بسبب روح الترف ووفرة المال وتشجيع الخلفاء مما يجعل هذه الصناعة تفوق كثيرا ما كانت عليه فى العصور السابقة حين كانت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية والأموية من قبلها .

---

(١) Sefer Nemeh, p. 114.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦٧

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٤٨

وقد أخرجوا من خزائن الخيم من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة والثياب المذهبة وغيرها والصفريات الفضة على أقدارها(١) وكانت صفرية الفسطاط الكبير المعروف باسم المدورة الكبيرة معمولة من ثلاثة قناطير من الفضة (٢) . واحتوت خزائن السيدة غبدة على أربعمائة قمطرة وألف وثلثمائة قطعة مينا فضة مخرمة وأربعمائة سيف محلي بالذهب (٣) ، ووجد فى خزائن القصر عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة من سائر الجواهر(٤) . ووجدوا طاووس ذهب مرصعا بنفيس الجواهر عيناه من الياقوت الأحمر ، وغزالا مرصعا بنفيس الجوهر والدر ، وبطيخة من الكافور في شباك ذهب مرصعة وزنها خالصة سبعون مثقالا ، وبطيخة كافور أيضا وجد ماعليها من الذهب ثلاثة آلاف مثقال . وأخرج أيضا العشارى الفضى الذى عمله على ابن أحمد لأم المستنصر وكان فيه مائة ألف وعشرون ألف درهم وأخرج جميع كسا العشاريات التى برسم البرية والبحرية وعدتها ومناطقها ورؤوس منحرفات وأهلة وصفريات وكانت أربعمائة ألف دينار لستة وثلاثين عشاريا وعدة مياكيم فضة منها ماوزنه مائةوتسعة أرطال فضة(٥).

ولا شك أن التحف التى نقلناها عن المقريزى تلقى ضوءاً ساطعا على تقدم الصناعة وعمل التحف من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والأدوات الكثيرة ذات الأغراض المختلفة التى استخدمت فيها كما أنها تساعد على تفهم حياة المجتمع الراقى فى ذلك العصر .

أما النحاس فكان يستعمل فى عمل كثير من الأدوات التى تستخدم فى الأغراض المنزلية . وكانوا يستخدمون البرونز فى صناعة المباخر وصنابير الأوانى وغير ذلك من الأشياء الدقيقة وبعضها علي هيأة الحيوان والطير ولكن « ليس لدينا

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٨

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٩

(٣) شرحه جـ ١ ص ٤١٥

(٤) شرحه جـ ١ ص ٤١٤

(٥) شرحه جـ ١ ص ٤١٦

تماثيل من البرونز بمعنى الكلمة اللهم إلا أمثلة نادرة وللعصر الفاطمى فيها النصيب الأوفر (١) » .

ومن الصناعات المعدنية الرائجة فى ذلك العصر ما أطلق عليه اسم التكفيت وقد أورد المقريزى عنها البيانات الآتية وهى غنية عن التعليق فقال « سوق الكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة . وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه واصف لكثرته فلا تكاد تخلو دار بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ولا بد أن يكون فى شورة العروس دكة عبارة عن شىء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالصاج والأبنوس أو من خشب مدهون وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها نحو الأردب من القمح وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض أصبعين ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر وغير ذلك من المناور والسرج واحقاق الاشناق والطشت والابريق والمبخرة فتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهب (٢) » .

وقد ذكر ناصر خسرو أنه رأى فى أسواق الفسطاط قطعا من سن الفيل مما ورد إلى البلاد من زنجبار (٣) ومن المؤكد أن القوافل التى كانت تسافر إلى بلاد كردفان كانت تعود ومن احمالها سن الفيل . ويعتقد الدكتور زكى محمد حسن أن أكثر ما استخدم فيه العاج على يد الصناع المصريين انما كان فى التطعيم (٤) . وكانوا كذلك يصنعون من هذه المادة قطع الشطرنج والعلب الصغيرة الثمينة لصيانة الجواهر والحلى ، فقد أخرجوا من خزائن القصور أيام الشدة العظمى من الشطرنج والنرد المعمولة من سائر أنواع الجواهر والذهب والفضة والأبنوس والعاج ما لا يحصى كثرة (٥) .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٢٣

(٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٣٢

(٣) Sefer Nemeh, p. 149.

(٤) كنوز الفاطميين ص ٢٢٥

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٥

وازدهرت صناعة الفسيفساء فى العصر الفاطمى « ولكننا لسوء الحظ لانملك أى مثال فى مصر نقيمه حجة لاثبات ذلك (١) » ، وقد شاهد الجغرافى المقدسى على بعض الفسيفساء فى الكعبة توقيع صناع مصريين (٢) ، وذكر هايد أن راهبا من مون كاسان أتي بصناع من المسلمين من الاسكندرية سيرا لعمل الفسيفساء اذ كانوا هم والبيزنطيون أمهر من الطليان فى صناعتها (٣) .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١٩٤

(٢) أحسن التقاسيم ص ٧٣

(٣) Histoire de Commerce, Tome I, p, 192.

obeikandl.com

(ط) صناعات المواد الغذائية وما اليها

(١) السكر والعسل

شاهد القرن الرابع الهجرى بداية النشاط الكبير فى صناعة السكر . إلا أنها تقدمت واتسع نطاقها فى العصر الفاطمى إلى حد كبير ويرجع ذلك إلى التقاليد التى أدخلها الفاطميون فى هذه البلادفقد جرت عادتهم على عمل الأسمطة فى شهر رمضان وفى الأعياد والمواسم المختلفة ويدعى إليها عدد كبير من الناس وتقدم لهم أنواع الحلوى. وذكر الرحالة ناصر خسرو أنه حضر فى وليمة افطار فى مدينة القاهرة وذلك فى رمضان وقدر ما استهلك فيها من السكر نحو ٧٦٣٠٠ كيلوجراما (١) أى حوالى ٢٠٤١ قنطارا. ومع أن الرقم كبير إلا أنه يعطى صورة لهذه الولائم ومبلغ مايستهلك فيهاخاصة إذا ذكرنا الألوف من الرجال والنساء من كبار الموظفين وصغار المستخدمين والعمال فى القصور الفاطمية .

وأنشأ الخليفة العزيز بالله دار الفطرة وكانت وظيفتها تفرقة مايشترى لها من السكر والحلوى وغيرهما فى الأعياد والمواسم على جميع الناس من الخاصة والعامة(٢). ومن الأمثلة على ذلك ما كان يعمل بمناسبة مولد النبى وعيد الفطر وموسم رأس العام وفتح الخليج . وقد ذكر المقريزى أنه إذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول بدأت الاستعدادات للاحتفال بالمولد النبوى فيعمل فى دار الفطرة مقادير كبيرة من السكر اليابس حلواء يابسة وتعبى فى الصوانى ثم تفرق علي أرباب الرسوم وأرباب الرتب ، فأول أرباب الرسوم قاضي القضاة ثم داعى الدعاة ويدخل فى ذلك القراء فى الحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع فى القاهرة والمشاهد (٣) . وفى

---

(١) Mazuel:Le Sucre en Egypte, p. 11—12.

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٢٥

(٣) شرحه ج ١ ص ٤٢٢

الاحتفال بهذا العيد عام ٥١٦ هـ عملت أربعون صينية خشكنانن وحلوي وكعك وأطلق برسم المشاهد المحتوية على الضرائح الشريفة لكل مشهد سكر وعسل ولوز ودقيق وصدر الأمر بأن يعمل خمسمائة رطل حلوى وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء . وفي عام ٥١٧ هـ وزع على المساكين بالجامعين الأزهر والعتيق وبالقرافة خمسة قناطير من الحلوى كما حمل من دار الفطرة إلى الأعيـــان والمستخدمين مقادير معلومة (١) . وكان مصروف الفطرة السنوى يشمل سبعمائة قنطار من السكر وخمسة قناطير من عسل القصب (٢) .

ومن المحقق أن هذه العادات سرت بين صفوف الشعب الذى أخذ يعنى بالاحتفال بالأعياد والمواسم . أضف إلى هذا أن الولائم كانت من أعظم وسائل التسلية بوجه عام . ولاريب أن هذه التقاليد كانت عاملا قويا فى انتشار صناعة السكر وعمل الحلوى والفطائر والكعك حتى أنه كان للحلوى أسواق كبيرة فى مدينة الفسطاط (٣). وفى إحدى أوراق البردى وتاريخها عام ١٠٠٠ م يفتخر الكاتب بحلاوة الفستق الملبس بالسكر (٤) .

وكانت مراكز صناعة السكر منتشرة فى مختلف أنحاء البلاد ومنها الفسطاط (٥)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٣٢

(٢) شرحه جـ ٢ ص ٤٢٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٢-١٢٣ وجـ ٥ ص ٩٩

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٩

(٤) Mazuel: Le Sucre en Egypte, p. 11.

(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٢ نقلا عن ابن سعيد الذى ذكر مطابخ السكر، وابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١٠٨

والمنيا والفيوم وترنوط (١) وأسيوط (٢) وقفط (٣) وسمهود(٤). ويظهر من عبارات مختلفة أوردها المقريزى أن صناعة العسل كانت واسعة الانتشار فى المناطق التى اشتهرت بزراعة القصب(٥) فكانوا إذا حل شهر هاتور بدأوا فى كسر القصب برسم المعاصر وإفراد الاتيان لوقود القنود وترتيب القوامصة لعمل الاباليج والقواديس والأمطار برسم القنود والأعسال(٦). وفى الشهر التالى أى كيهك كانوا يأخذون فى اعتصار القصب واستخدام الطباخين لطبخ القنود (٧) .

وكان القصب يحمل إلى المعاصر حيث بها أحجار خاصة لاعتصاره ثم بعد ذلك يبدأ الطباخون فى عمل العسل . أما صنع السكر نفسه فكانت له مصانع خاصة أطلق عليها اسم المسابك أو المطابخ . ويظهر أن بعض هذه الأماكن كان مزودا بطواحين لإدارة الآلات البسيطة المستعملة كما تدل على ذلك عبارة البكرى التى سبق لنا إيرادها .

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢
نفس المصدر فى المجلة الاسيوية المجموعة الخامسة الجزء الثالث ص ٤١٥ .
وذكر المؤلف أن فى ترنوط كثيرا من طواحين السكر ، وعدد كبير من أهل البلدة من الأقباط .

(٢) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٩٩ وقال عن أسيوط « وبها سائر أنواع السكر ومنها يحمل الى سائر الدنيا » ولا بد أن هذه الشهرة الواسعة حصلت عليها هذه المدينة قبل ذلك بكثير

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٣٢ وقد قال عن هذه المدينة « بدأ خرابها بعد الاربعمائة من الهجرة وكان آخر ما فيها بعد السبعمائة أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب » ولا ريب أن عدد هذين النوعين فى القرنين الخامس والسادس كان أكبر مما ذكره المؤلف عن القرن الثامن بكثير

(٤) شرحه ج ١ ص ٢٠٣ (نقلا عن الادفوى الذى قال إنه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لاعتصار قصب السكر)

(٥) راجع ما كتبه المقريزى عن الشهور القبطية (الخطط ج ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٣)

(٦) شرحه ج ١ ص ٢٧٠ والاباليج جمع ابلوجة وهى تسع قنطارا ، والأمطار جمع مطر وهو ما يستخدم لوزن السوائل .

(٧) شرحه ج ١ ص ٢٧١

وقد فرضت الحكومة الفاطمية الضرائب على السكر والعسل كما يتضح من بيان المكوس التى ألغاها صلاح الدين الأيوبى فى مدينتى مصر والقاهرة إذ اشتمل هذا البيان علي الرسوم المفروضة على هذه الصناعة فى المدينتين وهى ٣١٠٨ دينار على دار القند ، ٣٢ دينارا علي مربعة العسل ، ١٣٥ دينارا علي مطابخ السكر (١). وكان الخراج الذى يدفعه المزارعون يشمل العسل فقد كان مما سامح به بيت المال فى وزارة المأمون البطائحى مائة وثمانية وثلاثون قنطارا من عسل القصب (٢) .

وليس لدينا ما ينهض دليلا على أن الحكومة الفاطمية احتكرت صناعة السكر خلافا لما يراه مازويل الذى يقول « أدخل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله احتكار صناعة السكر لأول مرة فى مصر ، وليضمن نجاح الاحتكار أمر باتلاف مقادير كبيرة من الزبيب والتى بأخرى من العسل فى النيل »(٣). إلا أن الواقع يخالف ما ذكره الكاتب وفى هذه الحادثة بالذات إذ أن الرغبة فى الاصلاح ومقاومة عادة شرب الخمر هى التى دفعت بالخليفة إلى اتخاذ هذا الإجراء . وقد أمدنا أبو المحاسن بالتعليل الصحيح لهذا العمل بقوله « واراق ـ أى الخليفة الحاكم ـ خمسة الآف جرة من العسل فى البحر خوفا من أن تعمل نبيذا » .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٤ و ١٠٥

(٢) شرحه جـ ١ ص ٨١

(٣) Le Sucre en Egypte, p. 11.

(٤) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٧٧

(٢) صناعة الزيوت والشمع

كانت البلاد الإسلامية تستورد أطيب أنواع الزيت من الشام وشمالى إفريقية(١). حيث يلائم جو إقليم البحر الأبيض المتوسط زراعة الزيتون. وبرغم هذا كانت بمصر صناعة زيتية لها قيمتها ومن عوامل نشاطها أن الزيت كان غذاء للطبقات الفقيرة من الفلاحين والعمال كما كانوا يستخدمونه للقناديل بقصد الإضاءة(٢). وإذا ذكرنا الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى بما امتازت به من حفلات ليلية تشترك فيها كافة طبقات الشعب كليالى الوقود وليلة الغطاس ثم السهر فى البيوت وفى خارجها إلى ساعة متأخرة من الليل فضلا عن العدد الكبير من الجوامع والمساجد والمشاهد المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، أمكننا أن نقدر مبلغ إنتاج البلاد من الزيت والشمع، وكان ترتيب الفطرة فى عيد شوال يحتوى على ثلاثين قنطاراً من الزيت الطيب للوقود .(٣)

وكانت أهم أنواع الزيت ما اتخذ من الزيتون وكان ثمنه رخيصاً (٤) كما كان الزيتون من غلات بعض جهات القطر المصرى كالفيوم (٥) ورآه المقدسى فى نواحى الاسكندرية(٦). أما زيت السمسم المعروف باسم الشيرج فكان قليلا وثمنه مرتفعاً (٧) وارتفاع ثمنه كان نتيجة لقلته فى الأسواق بسبب استهلاك الناتج المحلى والوارد الأجنبى من قبل الحكومة والأعيان ولكن أبا المحاسن ذكر لنا أن ترتيب الفطرة فى عيد

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢

(٣) شرحه ج ٥ ص ١٢٢

(٤) Nasiri Khosrou : Sefer Nemeh, p. 153.

(٥) Salmon: Repertoire Geographique de la Province du Fayyoum après An-Naboulsi, p. 26.

(٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٧

(٧) Nasiri Khosrou: Sefer Nemeh, p. 153.

شوال كان يشتمل على مائتى قنطار من الشيرج (١) وهومقدار كبير فى مناسبة واحدة مما يثبت أن المعاصر المصرية كانت تنتج مقادير لابأس بها منه .

وكانوا يصنعون الزيت من الفجل كما فى المعيصرة حيث له فيها معاصر كبيرة (٢) كما كان زيت الخس مستعملا واستمر ذلك شائعاً فى البلاد حتى القرن التاسع عشر الميلادى . ومن أهم مراكز عمل الزيت فى العصر الفاطمى سندفا إذ كانت عامرة وبها سوق زيت حسن . (٣) وكانت الفسطاط من أعظم مراكز هذه الصناعة ومن المحقق أن إنتاج البلاد من هـذه المادة كان مخصصاً للاستهلاك المحلى ولا يصدر منه شىء .

أما الشمع فكان للمصريين مهارة كبيرة فى عملة ويصنعون الشموع على اختلاف أحجامها مابين صغير يحمله الطفل وكبير تزن الواحدة بضعة أرطال فقد روى المقريزى عن ابن الطوير أنه إذا مضي النصف من جمادى الآخرة وكان عدده عندهم تسعة وعشرين يوما أمر أن يسبك فى خزائن دار أفتكين ستون شمعة وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى (٤) ، وذلك استعداداً منهم للاحتفال بليلة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٢

(٢) Leo Africain: Description de l' Afrique, Tome III, p. 396.
وقد ذكر ابن حوقل مايأتى « سخابها زيت الفجل » (المسالك والممالك ص٨٩)

(٣) المقريزى . الخطط ج ١ ص ٤٦٢

(٤) شرحه ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧ و ٤٩١
وكانت من أبهج الليالى وأحسنها يحشر الناس لمشاهدتها من كل آوب وتصل الى الناس فيها أنواع من البر وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد . وهذه الليالى الأربع هى ليلة مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه . وقد وصف المسبحى فى حوادث رجب من سنة ثمانين وثلثمائة أن الناس خرجوا إلى جامع القاهرة وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجوامع وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع وأطلقت الهدايا من الأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد وجلس بين يديه القراء والمنشدون والناحة وأقام الى نصف الليل ثم انصرف الى داره . وكان يطلق فى أربع ليالى الوقود برسم الجوامع الستة الأزهر والأقمر والانور والطولونى والعتيق (أى جامع عمرو بن العاص) وجامع القرافة والمشاهد وبعض المساجد التى لأربابها وجاهة جملة كبيرة من الزيت الطيب .

الوقود(١) . وتدل عبارة المقريزى عند كلامه على دار افتكين أنها كانت تحتوى على أصناف عدة من الشمع المعمول فى الأسكندرية وغيرها (٢) على أن أكبر مراكز هذه الصناعة كانت مدينة الأسكندرية حيث لرطوبة الجو أثر فى تماسك المواد المصنوع منها الشمع وهذا يحملنا على الاعتقاد بوجود هذه الصناعة فى الموانى الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط مثل دمياط وتنيس وإذا كانت أغلب المصادر لم تتحدث عن ذلك فلأن صناعة النسج كانت غالبة على هذه المدن .

وقال ابن سعيد ان بالفسطاط مطابخ السكر والصابون(٣) ولابد أن الأسكندرية كانت مشهورة كذلك بصناعة الصابون ، نظراً لزراعة أشجار الزيتون فى نواحيها. ولما كانت زراعته محدودة نعتقد أنهم كانوا يستوردون بعض الأنواع من الصابون من بلاد الشام، ولعل قيام هذه الصناعة فى الفسطاط راجع إلى سهولة الحصول على الزيت اللازم لها من بلاد الشام وهذا لا يمنع اعتماد الفسطاط على ما يرد اليها من الفيوم من هذه المادة .

وامتازت مصر بعمل دهن البلسان (٤) الذى انفردت به إذ لا يزرع نباته إلا فى عين شمس وحدها وكان المصنوع من هذا الدهن قليلا جدا لصغر المساحة المخصصة لزراعة هذا النبات إذ لم تتعد بضعة أفدنة . وكان البلسان يتخذ دواء لعلاج بعض الأمراض ونظن أن الحكومة الفاطمية كانت تحتكر هذا المحصول النادر وحذا حذوهم سلاطين المماليك من بعدهم (٥)

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٢٢

(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١٠٨

(٣) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١١٣

(٤) وفى هذا يقول فييت « وقد احتكرته حكومة المماليك وكانت تستخدمه فى المستشفيات وتهدى منه الى المثدوبين والسفراء الأجانب »

(٥) (Les Mosquées du Caire, Tome I, p. 96).

(٣) صناعة النبيذ والخمر

وهى من الصناعات الواسعة الانتشار لها أهمية فى دراسة تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر الفاطمى . وقد أمدنا المؤرخون بطائفة من الأخبار عن انتشار عادة شرب الخمر الأمر الذى يعتبر مقياساً لما ساد المجتمع المصرى خاصة فى الفسطاط والقاهرة من روح اللهو والميل إلى المجون ويبدو أن الأمر خرج عن الحد المعقول وأسرف الناس فى احتساء الراح في الأعياد والحفلات وغيرها وأوغلوا فى المجون والفجور فثارت نزعة المحاكم بأمر الله الاصلاحية ونهي عن بيع الفقاع وقطع الكروم ومنع بيع الزبيب ولم يبق فى ولايته كرما وأراق خمسة آلاف جرة من عسل فى البحر خوفا من أن تعمل نبيذا (١) . وتفيض روايات أخرى فى مقادير الخمر التى اتلفت ومحال بيعه التى أغلقت فلما ولى الظاهر لاعزاز دين الله الخلافة أذن لأهالى مصر فيما كان يعمل فى ليلة الغطاس ، وكان ينفق فى تلك الليلة من الأموال مالا يحصر فى مآكل ومشارب ويتجاهر الناس بشرب الخمر ويجتمع أرباب الملاهى وأرباب الملاعبات من كل فن ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة (٢)

وكأنما كان الناس ينسجون على منوال سادتهم فقد كان الظاهر يميل إلى اللهو والطرب وشرب الراح (٣) واشتغل الخليفة الآمر بأحكام الله من بعده باللهو والطرب وشرب الخمر (٤). وحتى الأديرة كان يغشاها بعض الخلفاء الفاطميين للهو والشرب ويرتادها غيرهم من أفراد الشعب فكانوا يعاقرون الخمر فى دير مارى حنا وأنشد ابن عاصم فى دير طمويه فقال :

واشرب بطمويه من صهباء صافية ... تزرى بخمر قرى هيت وعانات
على رياض من النوار زاهية ... تجرى الجداول منها بين جنات

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٧٧
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩
(٣) شرحه : جـ ١ ص ٦٥
(٤) شرحه : جـ ١ ص ٦٤

منازلا كنت مشغوفا بها كلفا وكن قدما مواخيرى وحاناتي
إذ لا أزال ملحاً بالصبوح على ضرب النواقيس صبا بالديارات (١)

هذه الأمثلة تدلنا على أن صناعة الخمر كانت منتشرة فى المدن الكبرى كالفسطاط والقاهرة والأسكندرية بوجه خاص ولعل فى وجود التجار الأجانب فى الأخيرة مايعلل انتشار محال الخمر بها . وأهم الانواع المعروفة فى العصر الفاطمى النبيذ من الكرم ويبدو أن استعماله كان مقصورا بوجه خاص على أفراد الطبقة العليا من المجتمع أو أن أهل القرى يعصرون الكروم ويستهلكون معظم النبيذ فلا يصل المدن الكبرى إلا القليل منه . وكان الناس يشربون كذلك أنواعا من الخمر مثل الفقاع والمزر والنبذة (٢) . وكان المزر والنيدة يصنعان من القمح أو الشعير ، وكانوا يتخذون كذلك المسكر من العسل (٣).

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ج ١ ص ٣٦١

(٢) ذكرها خليل بن شاهين الظاهرى عند كلامه عن منفلوط التى اشتهرت بهذا النوع

De Sacy: « Crestomathie Arabe » Tome II, p: 4.

وقد ظلت النيدة من المسكرات التى تعمل بالصعيد فقد تكلم عنها الرحالة الهولندى Norden ولعلها النوع المعروف باسم « البوظة »

(٣) هذا واضح مما عمله الخليفة الحاكم بأمر الله حين أمر بالقاء خمسة آلاف جرة من العسل فى النيل خوفا من أن تعمل نبيذا

وهذه العادة قديمة فى القطر المصرى ولا تزال محال بيع القصب وعصيره فى الأحياء الوطنية الفقيرة تبيع نوعا من المسكر يدعى (خمير القصب)

الفصل التاسع

نظام الطوائف الصناعية(١)

ونقصد به النقابات الصناعية التى كان ينتظم فى سلكها أرباب الحرف المختلفة . وهذا النظام الذى كان من دعائم الحياة الاقتصادية فى أوربا فى العصور الوسطى والذى ظل قائما فى أغلب بلادها حتى نشوب الثورة الفرنسية كان له نظير فى مصر وكانت له نفس الأهمية .

وللاسف لانجد فى المصادر التى بأيدينا بيانات جلية شاملة تستطيع أن تلقى ضوءا واضحاً على نظام الطوائف فى العصر الفاطمى وعلى الأسس التى قام عليها والمهام التى اضطلع بها . وكل ماهنالك إشارات مبعثرة وعبارات مبهمة فيما خلفه لنا المؤرخون قد لايكون لأغلبها اتصال مباشر بالموضوع ولكنها قد تصلح مع شىء من الربط

---

(١) طوائف الصناعات القديمة كانت تتكون من الصناع أو أرباب المهنة الواحدة . ونقصد بالصناع الأشخاص الذين تخصصوا فى صناعة من الصناعات ، والذين يمتلكون الأدوات التى يعملون بها وقد يمتلكون جانبا من الخامات التى تتطلبها العمليات الصناعية . فالطوائف إذن كانت اتحادا بين أرباب العمل يرمون به الى تحديد عدد الذين ينتمون الى المهنة والصناعة ووضع النظم التى تحول لصغار العمال (الصبيان) الارتقاء الى مركز رب العمل وتحديد الأسعار منعا للمنافسة وما إلى ذلك وهى تشبه إلى حد كبير النقابات الموجودة اليوم للمهن العليا كنقابات المحامين والأطباء الخ . . . . . .

وكانت تسمى فى أوربا Corporations أو guilds وتختلف عن النقابات واتحادات العمال فى العصر الحاضر من نواح عدة

أما نقابات العمل فهى تتكون من عمال أجراء لا يملكون أدوات العمل أو الخامات وكل مايملكونه هو قوة عملهم التى يعرضونها لأرباب العمل . والقصد من هذه النقابات تكوين جبهة أو جبهات عمالية تقف ازاء جبهة أرباب الأعمال بغية الدفاع عن مستوى الأجور وشروط العمل وكل مايتعلق بالدفاع عن صالح العمال كتعويض المصابين ومنح الاجازات السنوية وشروط تأديب العمال الخ . . . .

والاستنتاج لأن تنير لنا السبيل وسط الظلام الدامس الذى يحيط بهذا الموضوع الهام .

أما عن نشأة نظام الطوائف فنرى أنه لابد أن أصوله كانت قد نبتت فى مصر فى العصر الرومانى إن لم يكن قبل ذلك بكثير فقد كان لدى الرومان مايصح اعتباره نواة لهذا النظام ولما كانت مصر قد خضعت للسيادة الرومانية ردحاً طويلا من الزمن فمن المحقق أنها تأثرت بالكثير من الأنظمة الرومانية ومظاهر حضارة هذه الدولة . فلما تم للعرب فتح مصر ظل النظام قائما بها لأنهم أبقوا على العوائد والتقاليد السائدة ولم يحاولوا القضاء عليها . والواقع أن هذه الطوائف زاد نموها فى العصور الوسطى لأنها فترة امتازت فى كل أنحاء العالم المتمدين بروح التضامن بين أفراد الهيئات والجماعات المختلفة .

أما السبب فى نشوء نقابات تضم طوائف المشتغلين بالصناعات المختلفة فقد عبر عنه Rocher بقوله : وكان المشتغلون بحرفة واحدة ينضم بعضهم إلى بعض بقصد الدفاع عن مصالحهم(١) ولكن بمرور الزمن أصبح لهذه النقابات وظائف اقتصادية واجتماعية لها أهميتها وصار لهذه الجماعات تقاليد لايجوز الخروج عليها .

ولننتقل الآن إلى مناقشة وتحليل الشواهد القليلة التى بأيدينا عن هذه الطوائف فى مصر فى العصر الفاطمى بصفة خاصة .

قال المقريزى في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ١٨ مانصه « وكان فى كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم» . وهذه عبارة صريحة تدل على وجود طوائف الصناع على اختلاف أعمالهم . وقد لاحظ الأستاذ فييت على الكتابات التى نقشت على مبانى العصر الفاطمى أنه بجانب الكلمات العربية بناء ومهندس نجد إسم الذى أشرف على البناء مسبوقا بكلمة « معلم »(٢) ، واستعمل أبو صالح الارمنى العبارة نفسها حيث قال « لايزال قبر المعلم سرور الجلال قائما فى هذه الكنيسة حتى اليوم» (٣) وكانوا قديما يتحدثون عمن يتولى تربية الأطفال بأنه معلم صبية . فاللفظ إذن كان شائع الاستعمال ويحمل فى ثناياه معنى التعليم أو الإشراف على الغير بقصد تلقين مبادىء العلم أو أصول المهنة

(١) Economie Industrielle, Tome, I, p. 354.

(٢) Les Mosquèes du Caire, Tome I, p. 131.

(٣) Churches and Monasteries of Egypt, p. 91.

أو مافى حكمهما . وعلى ذلك يستدل من كتابة كلمة معلم على مبانى العصر الفاطمي أنه كان لها مدلول خاص وقيمة فنية وأن صاحب هذا اللقب يمتاز عن الصانع العادى من حيث الدراية الفنية والمركز الاجتماعى . وبعبارة أخرى نقول إنه كان رئيساً لغيره من المشتغلين بصناعة ما الذين لم يصلوا إلى هذه المنزلة بعد .

وبدراسة نظام النقابات الصناعية فى انجلترا مثلا فى العصور الوسطى نعلم أن النقابات كانت تضم ثلاث طوائف ممن يمارسون المهنة الواحدة وهذه الطوائف عبارة عن المعلم والعامل باليومية والصبى (١) . ولاشك أن كلمة (معلم) المنقوشة على المبانى الفاطمية تعد مرادفة للكلمة الإنكليزية master الذى يحذق صناعة ما ويشتغل لديه جماعة من الصبيان (apprentices) . وإذن من المستطاع أن نرى أن كلمة المعلم فى العصر الفاطمى كان يقصد بها الصانع المستقل الذى حذق أسرار المهنة واستطاع أن يشرف على تلقينها الصبيان الراغبين فى مزاولتها فى المستقبل . ومن المعقول أن هؤلاء الصبيان لم يكونوا يتناولون أجوراً عن عملهم معه لأنهم كانوا لايزالون فى دور التكوين والتدريب . وكنا نجد مثل هذا النظام قائما إلى عهد قريب فى مصر فى بعض المدن الصغيرة ونحن نعلم أنه في القرن الثامن عشر الميلادى كان على الصبى أن يقضى فترة من التمرين حتى إذا اشتد ساعده وعرف أصول الصناعة قدم شيئاً من صنع يديه فاذا حكم شيوخ الصناعة بكفايته منحوه أجازة بذلك فأصبح معلما وصار له الحق فى أن يشتغل لحسابه فى دكان أو مصنع (٢) . وليس هناك مايمنع أن هذا التظام كان متبعاً فى مصر فى العصر الذى نحن بصدد دراسته . ولما كانت مدة التمرين طويلة لم يكن

---

(١) Lipson: The Economic History of England (Middle Ages) p. 2, 9.

وقد عرف النقابة بما يأتى :—

«The craft guild comprised three classes of members—the masters, the journeymen and the apprentices. »

(٢) كان بألمانيا قبل الحرب الحالية أمر شبيه بهذا وفى مصر اليوم لابد أن يقضى من يريد الالتحاق بصناعة ما فترة فى التمرن عليها تحت إشراف أحد الصناع أو فى محل صناعى الا أن هذا من التقاليد فقط ولا يشترط موافقة رؤساء الصناعة إذا أراد أن يشتغل لحسابه

من المعقول أن يظل الصبي يعمل دون أن يتناول أجراً بل من المحقق أنه كان يتناول أجراً بعد انقضاء فترة من الزمن وهنا يصل إلى المرحلة الثانية حيث يصبح عاملا باليومية .

فإذا صح الاستنتاج قد تكون فى مصر أول عنصر من عناصر النقابات .

وقد أمدتنا إحدى أوراق البردى (١) بمعلومات ثمينة فى هذا الصدد تعد تأييداً لما نقول كما أنها تذكر لنا المرادفات للألفاظ الإنجليزية بلغة القوم فى ذلك العصر . وفيما يلي نص هذه الوثيقة .

كشف نفقات إعادة بناء بيت

(القرن الثالث الهجرى)

النقاطين(٢) ½ دينار

والبنا فى أول يوم : بنائين وستة رقاصين معهم

ونصف رقاص أجرة البنائين ستة دراهم وغداهم

درهم واحد وغدا ستة رقاصين درهم ونصف (٣)

وقد علق جروهمان على هذا النص وترجمه إلى اللغة الإنجليزية فقال إن الرقاصين هم Journey mesons. أما «نصف رقاص» فيرجح أن هذه العبارة يقصد بها أحد الصبيان ممن يستخدم للخدمة الشخصية . ويلاحظ من النص كذلك أن البناء وحده هو الذى يتناول أجراً وغداء أما الرقاصون فيعطى لهم الأكل فقط الذى قد يشاركهم فيه الصبي ، ولكنا نعتقد أن البناء كان يعطى الرقاصين أجراً من عنده . أما صاحب البيت فلا يدفع الأجر إلا له ولكنه فى الوقت نفسه مكلف بتقديم الطعام فى وقت الظهر اليهم . . وللاسف لم نعثر فى المصادر التاريخية والجغرافية التى رجعنا اليها علي ذكر لعبارتى (رقاص) و (نصف رقاص) ومن المحتمل أنها ألفاظ عامية كان يستعملها الشعب لنفسه .

---

(١) Grohman; Arabic Papyri (Economic Texts) ms, Vol. vi, p. 74-5.

(٢) يقصد بهم العمال الذين يقطعون الحجارة

(٣) الأيام الباقية لا يختلف ترتيبها عما اقتبسناه

وكى يكون المحترفون العمل الواحد أقرب إلى التفاهم والتعاون كان من الضرورى أن تكون محال أعمالهم قريبة بعضها من بعض وهذا ما نعلمه من المقريزى وابن دقماق وسواهما فقد كانت الفسطاط أولا ثم القاهرة بعدها عبارة عن أحياء مختلفة كل حي خاص بأرباب حرفة واحدة وكان يطلق على هذه الأحياء عبارة الأسواق وقد حدثنا المقريزى عن أسواق الصيارف والجوخيين والحلاويين والشوايين والحريريين والخراطين والكفتيين وغير هؤلاء من أصحاب الصنائع . وقد كان نظام تقسيم المدينة إلى أحياء صناعية وتجارية خاصة سائدا فى مدن العالم الإسلامى فكان له نظير في بغداد والموصل وتونس والجزائر ومراكش ، واستمر قائما بمصر حتى القرن التاسع عشر الميلادى وشاهده الرحالة الأجانب وكتب عنه العلماء المرافقون للحملة الفرنسية على مصر .

ننتقل الآن الى البحث فى وظائف هذه النقابات وتحديد العلاقات بينها وبين الحكومة . أما من الناحية الفنية فقد كانت عاملا من عوامل ارتقاء فن الصناعة نفسه إذ أن العامل الذى يسعى إلى الوصول إلى منزلة (المعلم) كان مكلفا أن يقدم الدليل على كفاءته فيقدم إلى رؤسائه خيرما كان يستطيع صنعه وفى هذا دافع إلى الابتكار والاتقان .

نعلم ان نظام الحسبة من الانظمة التى اتخذها المسلمون وكان لها عندهم مقام معروف وكانوا يعينون فى مصر فى العصر الفاطمى كما فى غيره مفتشين على الاسواق لمراقبة التجار والصناع حماية للمستهلك ومنعا للتلاعب والغش . ففى كتاب من سليمان ابن يهوذا إلى افراهام بن شماريا بالفسطاط يوصف حلفون بن حلقى أنه « الموظف المكلف بالاشراف على التجار (١) » وفى كتاب آخر أشار افراهام نفسه إلى الرقابة على الاسواق (٢) والعبارة الثانية أعم وأشمل اذ تضم كل من بالسوق من تجار وصناع وصبيان وغيرهم . وهنا نتساءل : أكان المشرفون على الاسواق من الموظفين خاصة أم أنه كانت لهم علاقة بهذه الاسواق أو الصناعات ؟

---

(١) J. Mann: The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Vol·I, p. 81.

(٢) Ibid, p. 128.

روى كاترمير نقلا عن المقريزي أنه كان للمفتش على الخبازين دكان وأمامه آخر لتاجر يبيع الخبز واذ خاف التاجر على بضاعته من العطب أخذ يبيع ما لديه من الخبز بسعر يقل عما يباع به فى السوق فما كان من المفتش إلا أن عاقبه على هذا العمل وهنا شكا التاجر للوزير اليازورى الذى أحضر المحتسب وناقشه فى الأمر فاصدر المحتسب أمره بطرد المفتش من عمله ومنح التاجر قدرا من المال على سبيل التعويض. فلما رجع الرجل إلى دكانه أقبل على تخفيض سعر الخبز أكثر من ذى قبل حتى اضطر الخبازون الآخرون إلى مجاراته والبيع بأقل من السعر المحدود (١) وقد ذكر ناصر خسرو أن التجار كانوا يبيعون السلع بأسعار محدودة (٢).

إلا أن الرواية التى ذكرها المستشرق الفرنسي على جانب عظيم من الأهمية. فمفتش الأسواق كان فى الوقت نفسه يمتلك دكانا لبيع الخبز ويصح أن نستدل بهذا على أن الحكومة كانت تستعين بأحد أرباب الحرف لتولى وظيفة مراقبة الأسواق إذ هو أكثر دراية بأسرار الصناعة وأقدر على كشف الغش وفى هذا يقول النبراوى» ولما لم يدخل الاحاطة بأفعال السوق تحت وسع المحتسب جاز له أن يجعل لكل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم مشهورا بالثقة والأمانة يكون مشرفا على أحوالهم ويطالعه بأخبارهم وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع وما تستقر عليه من الاسعار وغير ذلك من الاسباب التى تلزم المحتسب معرفتها»(٣). وذكر ابن الاخوة فى هذا المعنى الكثير فقال فى الحسبة على الفرابيين، يعرف عليهم — أى المحتسب — رجلا ثقة من أهل صناعتهم (٤). وفى موضع آخر عن الفرابليين يعرف عليهم رجل ثقة بصير بغشهم (٥). ومن دراسة

---

(١) Quatremère: Mémoirs Géographiques et Historiques, Tome II, p. 314-5.

(٢) Scfer Nemeh, p. 153.

وقد قرر الرحالة نفسه أن السلطات كانت تلجأ الى التشهير بالتاجر إذا ارتكب غشا

(٣) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (مخطوط) ص ٥ — ٦

(٤) معالم القربة فى أحكام الحسبة. مخطوط. : الفصل الخامس والستون السطر الأول

(٥) شرحه : ٦٢ سطر (١)

واجبات العريف على ماذكرها النبراوى وابن الاخوة نجد ان هذا الشخص كان يشرف على مراحل الصناعة المختلفة حتى إعدادها وبيعها ويطالع المحتسب بكل مايراه .

ومن الثابت أن تسعير السلع والحاجيات من حق الحكومة وهنا نجد مفتش الاسواق الذى أشرنا إليه من قبل يعاقب أحد الخبازين لأنه باع سلعة بأقل من السعر السائد فى ذلك الوقت والمفروض أن الغرض الأول من التسعير منع ارتفاع الأثمان حسب أهواء أرباب الحرف والتجار والحيلولة دون تحكمهم فى طائفة المستهلكين. فليس إذن من المعقول أن يعاقب عمال الحكومة — أو من يصح اعتبارهم كذلك — شخصاً لأنه باع بسعر منخفض وهو عمل فيه تخفيف عن الجمهور . وهنا نستطيع القول بأن أفراد الطائفة كانوا يتفقون فيما بينهم على اتباع السعر المحدود بمعنى الا يحاول أحد منهم أن يبيع بأقل منه وذلك منعا للمنافسة فيما بينهم وحرصا على صالح الأعضاء جميعا ، بل إن الطائفة عن طريق العريف مثلا لم تكن تتورع عن عقاب الخارج على هذا التقليد .

قلنا إن التجار كانوا يبيعون بأسعار محدودة وهذا ينطبق بطبيعة الحال على غيرهم من أرباب الحرف والصنائع وهنا يعرض لنا هذا السؤال : أكان لأفراد الطائفة علاقة بتحديد الأسعار ؟

روى ابن إياس نقلا عن ابن كثير أنه وقع غلاء فى مصر فى خلافة الحاكم بأمر الله فاجتمع الناس تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر فى أحوالهم فأعلن الخليفة أنه سيتوجه فى الغد إلى جامع راشدة لأداء الصلاة ثم يعود من مصر بعد ذلك فان وجد فى طريقه مكانا خاليا من القمح ضرب عنق صاحب ذلك المكان ثم توجه إلى الجامع وتعمد أن يتأخر هناك إلى ما بعد العصر . وقد أجدى هذا التهديد اذ أخرج الناس ما اختزنوه من الغلال حتى امتلأت بها الطرقات وحصل الناس على حاجتهم منها وبعد ذلك استدعى الخليفة إليه أصحاب الغلال وقرر معهم أسعار كل صنف من أصناف الغلال « بثمن معين لا يزيد ولا ينقص » (١) .

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٥٥

والذى يهمنا من العبارة التى أوردها ابن اياس الفقرة الأخيرة منها ، فهما نحن نرى الخليفة يستدعى اليه احدى الطوائف ويتبادل مع أفرادها الرأى حتى انتهى الأمر إلى الاتفاق على سعر معقول مناسب ليس فيه إرهاق للمستهلكين أو إجحاف بالبائعين والنتجين ، وتعهد التجار الا يزيدوا السعر كما تقرر ألا ينقص عما تم الاتفاق عليه منعا لما قد يحدث من خروج عضو على الجماعة أو حدوث طوارىء قد تؤدي إلى هبوط الأسعار مما قد يعود على التجار بالضرر والخسارة . وفى كثير من الحالات المشابهة كان الخلفاء والوزراء يستدعون الطحانين والخبازين للاتفاق على مافيه صالح الناس ، فكأن الطائفة يمثلها رئيسها ووكلاؤه تشترك مع السلطات الحكومية فى تعيين مستوى للأسعار .

ويبدو كذلك أنه كان للنقابة صوت فى تحديد الأجور التى تدفع لطوائف العمال والصناع من ذوى الحرف المختلفة ولا ريب أن هذه الأجور كانت تتفاوت حسب المهن والأحوال والمناطق وما إلى ذلك من العوامل التى لها علاقة بتحديد الأجور. ذكر ناصر خسرو فى وصف تنيس أن العمال كانوا يقبلون على عملهم بسرور وأنه كان يدفع لهم السعر العادل(١) وهو فى هذا يتكلم عن عمال فى مصانع تدار لحساب الحكومة . ونظن أن الحكومة كانت تستعين بالعرفاء وشيوخ الصناعة لمعرفة الأجر الذى يصح دفعه للعمال بحيث لا يكون فيه غبن عليهم والمعول أن يتفق أفراد الطائفة بينهم على الأجور التى يتناولها الصناع ونعتقد أن رئيس الطائفة كان من واجبه الاشراف على تنفيذ مثل هذه الاتفاقات .

وقد عثرنا على هذا النص آثرنا نقله « ينبغى » على كساح السماد وحمالته «أن يعرف عليهم عريفا ويأمرهم بأنهم إذا نقلوا السماد إلى ظاهر البلد أن يحفروا له حفائر فاذا نقل اليها يضم عليه حتى تنقطع رائحته فلا يتأذى منه أحد ويمنعون من نقل ذلك إلى الماء وطرحه فيها أو حوله ويمنعون أيضا سرقة الطوب والشقاف فى قفف الرماد إذا جابوه ويرمونه فى البئر ويدقونه ويقولون لصاحب البيت :

---

(١) Sefer Nemieh. p. 115.

هذه الأرض الجلدة قد بلغنا اليها وهم كاذبون وفى البئر سماد كثير قد بقى فيوقف العريف على نظافة ذلك وعلى حقيقته بالبحث والحفر ويكون له نصيب من أجرتهم يستعين به على مراعاتهم والطوف عليهم ويمنعهم أيضا من فتح آبار الناس قبل الشرط على الأجرة لأنهم ربما فتحوا البئر وتغالوا فى الأجرة » (١)

ونستخلص من هذا أمرين على جانب من الأهمية : أولهما أن العريف فى الغالب يتفق على الأجر الذى يدفع لأهل طائفته قبل أن يبدأ العمل والغرض من هذا واضح إذ يرمى إلى تحديد الأجر المناسب لهم ولمن يعملون له ، وكذلك يقصد به منع المنازعات فى المستقبل وهنا يصح القول أن العريف نيابة عن المحتسب كان له النظر فى أمثال هذه الخلافات إذا حدثت كما لو اتفق على أجر ثم امتنع الشخص الذى يؤدى له الصناع العمل عن دفعه . أما الأمر الثانى فهو أن العريف يتناول جانبا من أجور العمال وإيراد أصحاب المصانع مقابل هذا العمل الذى يقوم به وهو الإشراف عليهم .

وكان العريف أو رئيس الطائفة هو الواسطة بين أرباب المهنة والحكومة فهو الذى ينقل اليهم أوامر الحكومة وتعليماتها كما تدل علي ذلك عبارة المقريزي عند كلامه على حبس المعونة « قال ابن المأمون : فى عام ٥١٧ هـ تقدم أمر المأمون إلى الوالين بمصر والقاهرة باحضار عرفاء السقائين وأخذ الحجج علي المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة اليهم ليلا ونهارا وكذلك يعتمد فى القربيين » (٢)

---

(١) هذه العبارة فى كتاب « حفريات الفسطاط » لعلى بك بهجت ومسيو البير جبرييل (ص ١١١ حاشية رقم ١) مقتبسا من الباب الثامن والسبعين من مخطوط عنوانه « الرتبة فى الحسبة » محفوظ بمكتبة الجامعة الفرنسية ببيروت وقد ورد فى المخطوط اسم ابن بسام فى عنوانه مع اسم آخر فى مقدمته ويقول المؤلفان « والمرجح عندنا أن مؤلفه غير معروف ولا يمكن تعيين الوقت الذى ألف فيه هذا الكتاب على وجه قطعى . وربما يكون قد كتب على عهد الحاكم أو بعض خلفائه لورود اسم الخليفة الحاكم فيه مصحوبا بعبارات التبجيل والاحترام كما فى العبارة الآتية : مولانا الحاكم أمر بمنع كذا وكذا » (شرحه ص ٩٩ حاشية رقم ١)

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٦٣

ويبدو أن العريف كان يتدخل لفض المنازعات البسيطة التى كانت تنشأ بين أفراد الطائفة . والواقع قد ظلت هذه من أهم وظائفة حتى عهد الحملة الفرنسية علي مصر ، وكان نفس الشيء سائدا فى أوربا فى العصور الوسطى . وليس لدينا مايلقى ضوءا كافيا على وظائف النقابة الاجتماعية كما كان الحال فى أوربا ولكن الحق أن نزعة الطائفية كانت تسود طبقات المجتمع فى تلك العصور . ويتضح مدى انتشار روح التضامن والتعارف بين أفراد الجماعة الواحدة مما ذكره القلقشندى عن نقيب الطالبيين(١) . وإن كان هذا المثل لا علاقة له بتاتا بطوائف الصناع وأرباب المهن إلا أنه يفسر لنا مدى انتشار هذه التقاليد فى البلاد .

ويمكن أن نلخص وظائف النقابات فيما يأتى : —

١ — تدريب الصبيان علي تعلم أسرار المهنة وتحديد العلاقة بين المعلم والصبي أو تنظيمها وهذا أشبه بتعاقد يتضمن التزامات من جانب الطرفين .

٢ — مراقبة المشتغلين بالصناعة الواحدة من النواحي الفنية والاقتصادية .

٣ — حماية المستهلك من الربح الفاحش والغش وسوء الصناعة وذلك بمراقبة الأثمان منعا للمغالاة .

٤ — الاشتراك في تحديد الأسعار والأجور .

٥ — فض المنازعات بين أفراد المهنة الواحدة بطريق التحكيم الودى .

٦ — القيام ببعض الخدمات الاجتماعية للأعضاء فى وقت الحاجة .

٧ — إعتبار العريف مسئولا أمام الحكومة عن افراد الطائفة وسلوكهم وواجباتهم .

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٦ « وله ـ أى نقيب الطالبين ـ النظر فى أمورهم وعليه ان يعود مرضاهم ويمشى فى جنائزهم ويسعى فى حوائجهم »